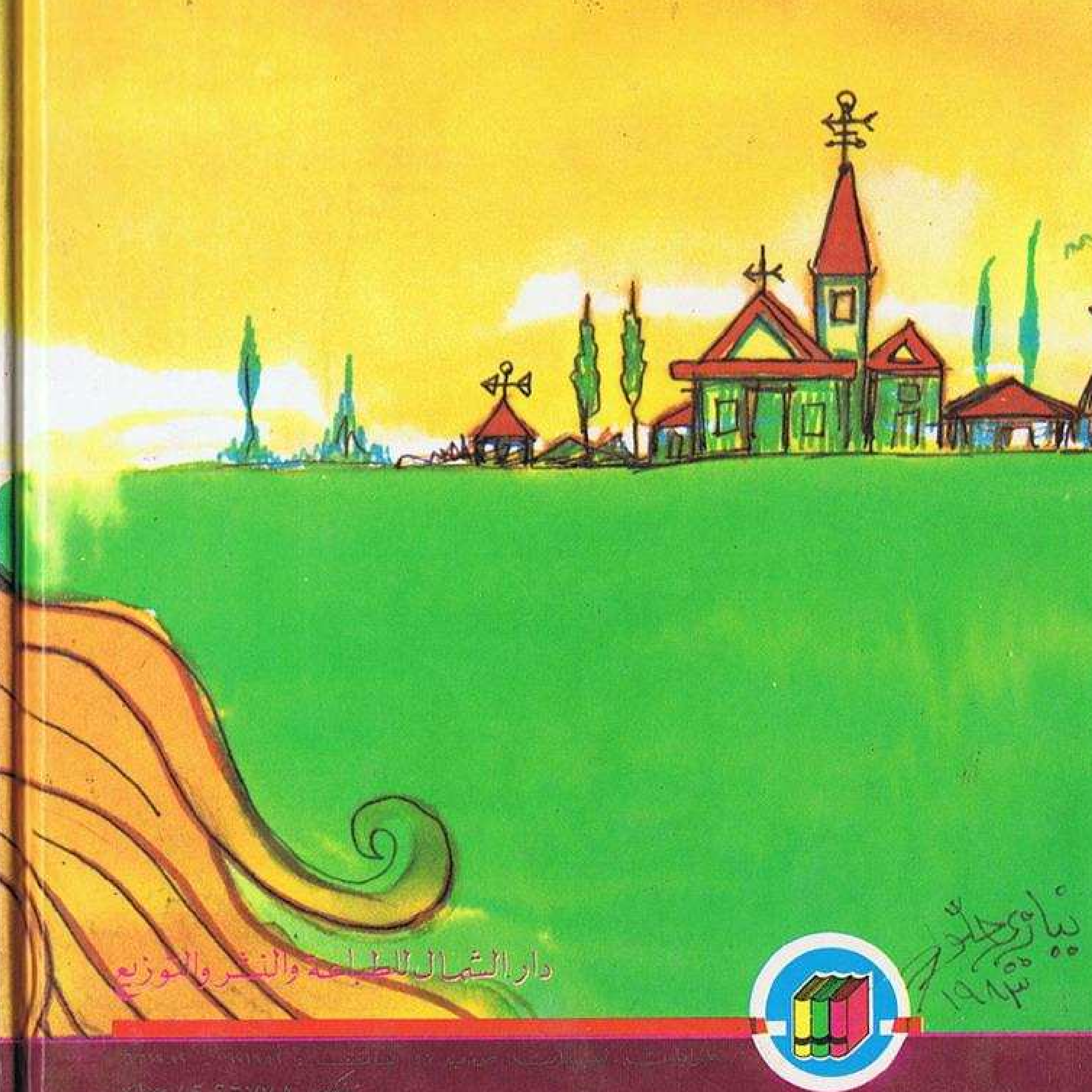


الأحمر والأسود

- الاحمر والاسود
- فونتين
- قصة الثعلب
- الاب البخيل
- جاڤروش
- الشيئ الصغير
- كولومبا
- ميشال ستراغوف
- كريستوف كولومبس
- غرازييلا
- كوزيت
- كنوز الملك سليمان



دار الشمال للطباعة والنشر والتوزيع

الأحمر والأسود

تأليف

الكاتب الفرنسي الخالد

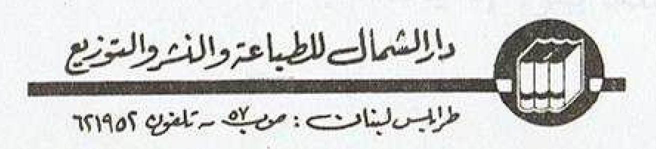
ستاندال

أشرف على التعريب

ناصر عكاري

مراجعة وتصحيح

سيف الدين الحطيب



الأَحمَر والأسوَد

بَلدَةٌ صَغيرةٌ وعُمدَتُها

إن المسافر الذي يصلُ بلدةَ «فاريار» يدهشُ لسماعه الصّوت الذي تُحدثه عشرون مطرقة يُحَرّكُها دولابٌ يُديره النهر والذي يُشبه دويّ الرعد. وكلٌّ من هذه المطارق يُنجز كلَّ يومٍ آلاف المسامير. وإذا سأل عند دخوله تلك البلدة المُحاطة بالجبالِ عن صاحب هذا المصنع الجميل، أجابه سكّانُ الشارع الرئيسي: «إنه لسِيادَةِ العمدة».

وإذا سلكَ ذلك الشارع، فهناك احتمال كبير لأن يرى رجلاً يبدو مُنهمكاً وذا أهمية، ترتفعُ كلُّ القبعات لتحيّته عندما يمر. إنه يحتفظُ بمسحة الجمال الخاصة بمن بلغوا

العقد الخامس من عمرهم. لكن المسافرَ سرعان ما يعجبُ لوثوقه من نفسه ورضاه عنها وما يُخالطهما من ضيق الأفق وقلّة الذكاء. واخيراً فإنه يشعرُ أن كلّ فنّ ذلك الرجل يكمن في حَمْل الآخرين على دفع ما يتوجّبُ له في أقرب وقت وفي دفع ما يتوجّبُ عليه في أطول وقت ممكن.

تلك هي صورةُ السيد دي رنيال، عمدة فاريار الذي يعبرُ الشارع ثم يدخلُ دارَ البلدية فيغيبُ عن ناظريْ المسافر. لكنّ هذا الأخير يرى بعد مئة متر داراً كبيرة وحدائقَ في غايةِ الجمال ويعرفُ أنها ملكٌ للعمدة الذي دفعَ ثمناً باهظاً لشراء بعض قطع الأرض الصغيرة التي تشغلُها.

فهناك مثلاً عند مدخل فاريار تلك المنشرةُ الخشبيّةُ التي يُرى عليها اسمُ سوريل مكتوباً بحروفٍ كبيرةٍ، على لوحٍ خشبيٍّ يعلو السطح، انها كانت تشغلُ منذ ست سنوات المكانَ الذي يُشادُ عليه الآن سورُ رابعِ حديقةٍ للسيد دي رنيال. لقد اضطر العمدة لدفع اربعة أضعاف ثمنها، لأن سوريل العجوز فلاّحٌ متصلّبٌ عرف كيف يُساوم.

أسرة دي رنيال

في يوم خريفيٍّ جميل، كان السيد دي رنيال يتنزّهُ مُتأبّطاً ذراعَ زوجته. كانت هذه تصغي الى زوجها الذي يتحدّثُ بجديّة وعيناها تتبعُ بانتباه لعبَ ثلاثةِ صبْيَةٍ يلعب أكبرهم غالباً قرب جدارِ كرمٍ يربو ارتفاعُه على الستّة أمتار.

نادى صوتٌ عذب: «يا أدولف» فعادَ الولد باتّجاه والدته. كانت السيدة دي رنيال تبدو في الثلاثين من عمرها، مُحتفظةً بجمالها، طويلة، حسنة التّكوين، تسيرُ ببساطةٍ فتُسرُّ العين لمرآها.

صعِدَ ولدُها الثاني الى الجدار وأخذَ يركض فصاحتْ بصوتٍ منخفض: «آه!» ولم تشأْ أن تُخيفَ ابنها كيْ لا يسقطَ وهذا ما منعها عن الصراخ. أخيراً نظرَ الولد الذي

كان يضحك بشجاعة الى والدته ورأى شحوبَها فقفزَ الى
الشارع ثم عدا إليها.

قال السيد دي رنيال: يجبُ أن استخدمَ ابنَ بائعِ
الأخشاب الذي سيعتني بالأولاد بعد أن اصبحوا كثيري
الحركة.. لقد كنتُ أخشى حتى الآن أفكارَ سوريل
الشاب، فلقد كان كثير الإعجاب بقريبه الطبيب العجوز
الذي لقّنه اللاّتينيّة، والذي كان مُعارضاً، لقد شاركَ في
معارك ايطاليا وكان يحب نابليون والأمبراطورية، فمن
الجائز أن يكون قد أوحى اليه بأفكارٍ سيّئة، لذا لم أكن
لأُوافق أبداً على أن أعهدَ إليه بأولادنا لو لم يقُلْ لي كاهنُ
«شيلان» بالأمس إن الفتى يدرسُ اللاّهوت منذ ثلاث
سنوات وإنه يعتزمُ دخولَ الدّير: فهو ليس إذن مُعارضاً بل
عالماً باللاّتينيّة. إنه تقريباً كاهنُ شاب، ومن المؤكّد أنه
سيدفعُ الأولادَ للدّرس، فهو يعرفُ ما يريدُهُ كما قال لي
الكاهن. سوف أُعطيه ثلاثة مئة فرنك كراتبٍ شهريٍ
وسيأكلُ معنا. ثم اننا سنكون الوحيدين في البلدة الذين
لديهم مُربٍّ خاص.

ـ قد ينتزعونه منا.

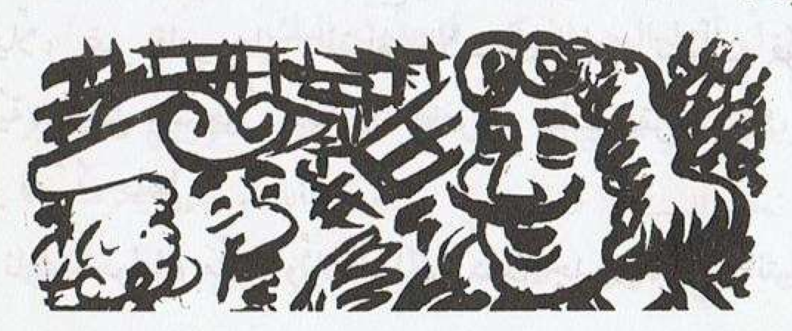
أجابَ السيد رنيال وهو يشكرُ زوجتَه بابتسامةٍ على
فكرتها الطيبة: «إذن فأنتِ مُتّفقةٌ معي في الرأي؟»

ـ أوه يا عزيزي! إنّكَ لسَريعُ القرار!

ـ ذلك انني أعرفُ ما أُريدُه. سوف أُنفقُ ألفاً وخمس
مئة فرنك، لكن هذا ضروري لأسرةٍ كأسرةِ دي رنيال.

وفي السادسة من صباحِ اليوم التالي نزلَ عمدة فاريار
إلى منشرة الأب سوريل الذي أدهشه وسَرّه قدومُ السيد
دي رنيال لاصطحاب جوليان. لكنه تساءل عن السبب
الذي حدا برجلٍ في مثل هذه الأهميّة لاستخدامِ رأسٍ
فارغٍ كابنه.

انه لم يكن راضياً قط عن جوليان الذي عرضَ السيد
رنيال من أجله مالاً كثيراً، وهو أمرٌ لم يستطِعْ فهمَهُ. لذا
رفضَ إعطاءَ جوابٍ فوريٍّ وقال إنّ عليه اولاً إستشارةَ
ابنه.



أبٌ وَولد

بعد انصرافِ السيد رنيال نادى الأبُ سوريل جوليان بصوته المدوّي فلم يُجبهُ ولم يَرَ سوى أولادِهِ الآخرين الذين كانوا بأدواتهم الثقيلة يعدُّون الأشجار قبل حملِها إلى المنشرة.

بحثَ عن جوليان الذي لم يكن في مكانه المعتاد، فرآه على ارتفاع متريْن أو ثلاثة يمتطي لوحاً خشبياً ولم يكن يقومُ بعمله، بل كان يقرأ وهو اشدُّ ما يَغضبُ له سوريل العجوز. إنه يستطيع أن يغفرَ لجوليان بقاءَه نحيلاً، غير قادرٍ على القيام بالأعمالِ التي تتطلّب قوّةً بدنيّة، لكن يستحيلُ عليه أن يغفرَ له عادةَ القراءة تلك، فهو نفسُهُ جاهل.

نادى جوليان مَثْنى وثُلاثَ لكنْ دون جدوى، لأنَّ انتباهَ

الفتى المركّزِ على كتابه حالَ بينه وبين سماعِ والدِه أكثرَ من صوت المنشرة. أخيراً قفزَ العجوزُ سوريل على الشجرة التي كان يُنْشَرُ منها لوحٌ خشبيٌّ يعلو الآلة.

أطارتْ ضربةٌ شديدةٌ كتابَ جوليان، أصابت ضربةٌ ثانيةٌ بنفسِ القوّة رأسَ الفتى فأحنَتْهُ إلى الأمام وكاد يهوي من علوّ أربعةِ أو خمسةِ أمتار على الآلة المتحركة لو لم يُمْسكْهُ والدَه بيده اليسرى، قائلاً:

ـ حسناً أيها الحيوانُ الكبير! هل ستستمرُّ بقراءة كُتبكَ الرّديئة أثناءَ العمل؟ طالِعْها مساءً عندما تذهبُ لإضاعة وقتِكَ عند الكاهن.

أخذَ جوليان يبكي لا مِنَ الألم بل لأنه فَقَدَ كتابه المحبوب.

ـ إنزلْ أيها الحيوان كي أتحدّثَ إليك.

وعندما قفزَ جوليان إلى الأرضِ دفعه سوريل العجوز أمامه نحو البيت، فقال في نفسه: «الله وحدَهُ يعرفُ ما سيفعلُه بي». في طريقه نظر بحزنٍ إلى النهر الذي

يحملُ كتابَه. انه «مذكّرات سانت هيلانة» الذي يُحبّه أكثرَ من سواه.

كان جوليان شاباً في الثامنة أو التاسعة عشرة يبدو عليه الضّعف، ويرسم شعرَهُ الأسودَ جبهةً صغيرة. اما عيناه الكبيرتان السوداوتان اللتان تنمّان في لحظات الصفاء عن ذكاءٍ مُتوقّد، فقد ترميان أحياناً بنظرةٍ خبيثة، ملأى بالغضب.

لم يكن يفهمُهُ أحدٌ في البيت. وكان الجميعُ يسخرون منه، لذا استحالَ عليه أن يُحبَّ إخوته وأباه.

عند دخوله المطبخ، شعر جوليان بيدٍ قويةٍ هي يدُ أبيه تشدُّ على كتفه فتوقع أن يتلقى بعضَ الضربات. وبدلاً من ذلك سأله والدُه:

ـ أَجِبْني دونما كذب! أيها الحيوان الخبيث! كيف تعرفُ السيدة دي رنيال؟ ومتى تحدّثتَ إليها؟

ـ لم أتحدّثْ إليها مُطلقاً ولم أرَ تلكَ السيدة إلا في الكنيسة.

ـ لكنّكَ ربما نظرتَ إليها كفتى سَيّءِ التّربية؟

ـ أبداً فأنتَ تعرفُ أنّني في الكنيسة لا أرى سوى الله.

ـ هناك مع ذلك أمرٌ في الخفاء. على كلٍّ حال فمنشرتي سوف تعملُ بشكلٍ أفضل وستتركنا أخيراً. لقد ربحتَ ثقةَ الكاهن أو شخصٍ آخر فوجد لك عملاً حسناً. سوفَ تذهبُ إلى دارِ السيد رنيال حيثُ ستكونُ مربّياً للأولاد.

ـ وما الذي سأحصل عليه مقابل ذلك؟

ـ ثلاث مئة فرنك بالإضافةِ الى الأكلِ والْمَلْبسِ والمأوى.

ـ لا أُريدُ أن أكونَ خادماً!

ـ أيها الحيوان! ومن ذا الذي يطلبُ منك ذلك؟ هل يمكن أن أقبلَ أن يكون ولدي خادماً؟

ـ لكنْ مع مَنْ سآكل؟

توقف الأبُ سوريل عند هذا السؤال ولم يستطعِ الإجابة عليه، ففضّلَ ألاّ يقولَ شيئاً لجوليان وأن يذهبَ لمناقشة هذه القضيّة مع أولاده الآخرين. . .

عندئذٍ حاولَ جوليان أن يتخيّلَ ما سيراه في دار السيد

دي رنيال الجميلة ثم قال لنفسه: «لن أذهبَ إلى دار السيد دي رنيال إذا كان عليَّ أن آكل مع الخدم. سوف يرغبُ والدي في إرغامي على ذلك لكنني أفضّلُ الموت. لديّ خمسةَ عشر فرنكاً وسأهربُ هذه الليلة فأسلكُ طرقاتٍ صغيرةً لا أصادفُ عليها أي دركيٍّ وأصل بعد يومين إلى بيزانسون. هناكَ أنخرطُ في الجيشِ وإذا اقتضى الأمر أنتقلُ إلى سويسرا. لكني بهذا أقضي على طُموحي وعلى مشروع دخولي الدير الذي يُوصلُ الآن إلى كل شيء».

لم يكن رفضُ الأكل مع الخدم أمراً طبيعياً بالنسبةِ لجوليان. بل فكرةٌ أوحتْ بها إليه قراءةُ اعترافات روسو. ولكي ينجحَ كان مُستعداً للقيام بأعمالٍ أشق، فلقد حفظَ مثلاً عن ظهر قلب جزءاً كبيراً من الكتاب المقدس كي يُدخل السّرورَ إلى قلب الأب شيلان الذي يستطيعُ أن يُساعده.

كانتْ كلُ إرادته ترتكزُ إلى الكتب الثلاثة التي يرى أنها لا تكذب: اعترافاتُ جان جاك روسو، ونشراتُ الجيش الكبير، ومذكّراتُ سانت هيلانه.

امْرَأةٌ لَطِيفَة

بعد ظهر اليوم التالي قال له والدُه: «خُذ حوائجَكَ واذهبْ إلى دار العمدة فستأكلُ على مائدته».

عجّلَ جوليان بالذهاب ومرّ أمامَ الكنيسةِ فشعر بالحاجةِ لدخولها. وعندما انفردَ بنفسه في بيت الله فكّر بالمهنةِ الجميلة التي قد يحصلُ عليها.

قال في نفسه: «عندما كنتُ طفلاً، أُعجبتُ بالجنودِ العائدين من ايطاليا. وفيما بعد أصغيتُ برغبةٍ ولذّةٍ مُتجدّدتيْن إلى قريبي وهو يروي لي قصّة حروب نابليون. في ذلك الحين كنتُ أودُ أن أكون جندياً لأنه في عهد الأمبراطورية كان بوسع الفقير أن يُصبحَ عظيماً. أما الآن فإن الفتى من عامة الشعب لا يُتاحُ له أن يَصيرَ شيئاً

مذكوراً إذا انخرط في الجيش، فعليه أن يكون كاهناً كيْ ينجحَ في الحياة!».

عند خروج جوليان من الكنيسةِ خُيِّلَ إليه انه يرى دماً لكنه لم يكنْ سوى ماء مراقٍ على الأرض أَضفتْ عليه الشمس من خلال الستائر الحمراء ذلك اللون، فخافَ وتساءل: «تُرى هل تعوزني الشجاعة إلى السلاح!»

أعطتْهُ هذه الكلمةُ التي غالباً ما ردّدها قريبُهُ، قوةً جديدة فحثّ الخطى باتجاه دار العمدة.

كانت السيدة دي رنيال خارجةً من الحديقةِ عندما رأت قرب المدخل وجه فلاّحٍ شابٌّ حديثَ عهدٍ يرتدي قميصاً أبيض ويتَأبّطُ سترةً نظيفة.. رثت لهذا الفلاّحِ الصغير ذي العينيْن الحزينتيْن، الواقفِ قرب الباب دون أن يجروَ على رفعِ يده لرنّ الجرس، فأتتْ اليه.

كان جوليان ينظرُ إلى الباب فلم يرها تتقدّم وارتجف عندما سمع صوتاً عذباً يقول قرب أذنه: «ما الذي تريده هنا يا ولدي؟».

استدار فلاحظَ نظرةَ تلك المرأةِ الطيّبة ونسيَ بعض خجله.

وبعد قليلٍ دهشَ لجمالها فنسيَ كلّ شيء حتى الغرض من مجيئه. كررت السيدةُ دي رنيال سؤالها فأجابها أخيراً بشيء من الضّيق:

- لقد أتيتُ لأكون مُربّياً يا سيدتي.

قالتِ السيدة دي رنيال بعجب:

- مُرَبّياً؟

كانا جدّ قريبين احدهما من الاخر، ينظران إلى بعضهما البعض، لم يسبق لجوليان أن رأى شخصاً بمثل هذا الهندامِ الحسن، وعلى الأخص امرأةً بمثل هذا الجمال تُحدِّثَهُ بلُطف.

عادتْ فقالت: «ماذا يا سيدي؟ أتعرفُ اللاتينيَّة؟»

أدهشت كلمةُ «سيدي» تلك جوليان ففكّر لحظةً ثم أجابَ وقد احمرّ وجههُ.

- أجل يا سيدتي..

- وهل ستكونُ لطيفاً مع أولادي المساكين؟

- أنا ولمَ لا أكون لطيفاً؟

أضافتْ بعد صمت قصير:

- أليس كذلك يا سيدي؟ انك ستكون طيباً معهم، أتعدُني بذلك؟

قصدتِ السيدة دي رنيال الدّار ثم توقفت إذ خشيتْ رغم كلِّ شيء أن تكونَ قد أساءت الفهم: فبالنسبةِ لها يجب أن يرتدي المربّي ملابسَ سوداءَ، قالت: «أصحيح يا سيدي أنك تعرف الّلاتينيّة؟».

جرحتْ هذه الكلماتُ كبرياءَ جوليان فأجابها وهو يحاولُ أن يُظهرَ البُرود: «نعم يا سيدتي، إنني أجيدُ الّلاتينيّة مثلَ سيادةِ الكاهن، أو أفضلَ منه».

بدا لها عندئذٍ خبيثاً، وهو واقفٌ على خطوتين منها فاقتربتْ منه وقالت بصوتٍ منخفض: «ألن تكون لطيفاً مع أولادي في الأيام الأولى حتى لو لم يعرفوا دروسَهم؟

أنسى هذا الصوت العذبُ كلَّ شيء لجوليان فأجاب: «لا تخافي يا سيدتي فسأُطيعُكِ في كلِّ شيء».

دخلتِ الدّارَ واستدارتْ نحو جوليان الذي كان يتبعُها فسألته:

ـ كم عُمركَ يا سيدي؟

ـ تسعة عشر عاماً، بعد قليل.

ـ إن ولدي الكبير في الحادية عشرة، وسيكون شبهَ

رفيقٍ لك، ما اسمك يا سيدي؟

ـ إنني أدعى جوليان سوريل يا سيدتي، وأنا خائفٌ لدخولي بيتاً غريباً للمرة الأولى في حياتي. أنا بحاجةٍ لأن تساعديني وتغفري لي أشياء كثيرةً في الأيامِ الأولى، أنا لم أدرس لأنّني كنتُ فقيراً، ولم أتحدثْ إلا مع قريبي الطبيب والكاهن شيلان الذي سيزكّيني لديك، تجاوزي عن أخطائي يا سيدتي فلن تكون أبداً مقصودة، لن أضربَ أولادَك أبداً وأعدُك بذلك أمامَ الله.

قال ذلك وتجرّأ فتناول يد السيدة دي رنيال ورفعها إلى شفتيه.



المربّي المُدهِش

سمع السيد دي رنيال حديثاً فخرجَ من مكتبه وقال لجوليان بهيئةٍ جادة «ينبغي أن أتحدثَ إليك قبل أن يراكَ الأولاد». ثم أدخله إلى إحدى الغرف وطَلبَ إلى زوجته التي كانتْ تريدُ تركهما لوحدهما أن تبقى معهما. بعد إغلاق الباب جلسَ السيد دي رنيال وقال: «لقد أخبرني الكاهنُ أنك شابٌّ صالح، وفي داري لن يخرجَ أحدٌ عن احترامك. أما الآن يا سيدي، وهنا سآمُرُ الكل بأن بدعوك هكذا، الآن يا سيدي، يجب ألا يراكَ الأولاد بهذه الملابس فَلْنذهبْ حالاً إلى الخياط».

بعد أكثر من ساعة، عندما عادَ السيد دي رنيال مع جوليان وقدِ ارتدى هذا الأخير ملابسَ سوداء، كانت زوجةُ الأول لا تزالُ جالسةً في نفسِ المكان وقد أبدت للفتى بعضَ البرود فاعتقدَ أن السبب هو تجرّؤه على

تقبيل يدها. لكنَّ ملابسه الجميلة السوداء، المختلفة عن تلك التي اعتـاد ارتـداءَهـا، جعلتْهُ يجنُّ من الفرح والكبرياء.

قُدِّم بعد قليل للأولاد فتحدثَ إليهم مُطولاً بطريقةٍ أدهشتْ السيد دي رنيال. قال لهم في النهاية:

ـ أيها السادة، إنّني هنا كيْ أُلقنكم اللاتينيّـة. هل تعرفون كيف تسمِّعون درساً؟

ثم أضـاف وهو يـريهم كتابـاً صغيـراً أسـود كُتب باللاّتينية:

ـ هاكم الكتابَ المقـدس، فاليـوم ستجعلونني أنتم أُسمِّعُ درسي.

أخذ أدولف وهو أكبرُ الأولاد سناً الكتابَ فتابعَ جوليان قائلاً.

ـ إفْتحه حيثما شئتَ وقُلْ لي ما هي أوَّلُ كلمةٍ في الصفحة، وسأتلو الكتابَ المقدس إلى أن تستوقفَني.

فتحَ أدولف الكتابَ وقرأ كلمةً فتلا جوليان الصّفحة

بأكملها وبنفسِ السهولة التي يتحدّث بها بالفرنسية، نظرَ السيد دي رنيال إلى زوجته وقد بدا عليه الاعتزاز، وعندما رأى الأولادُ دهشةَ أبويْهم حملقوا بالمربّي بأعينٍ مُتعجّبة، في هذه الأثناء أتى أحدُ الخدم إلى الباب فتابع جوليان حديثَه باللاتينية، توقّفَ الخادمُ وأصغى ثم انصرف. بعد قليل وصلتْ وصيفةُ السيدة ثم مستخدمو الدار، كلّ ذلك وجوليان يتحدّث باللاتينية وبنفسِ الطّلاقة..

وهكذا وبعد أقل من شهر من حُلول جوليان في الدار، بدأ السيد دي رنيال يكنُّ له بعضَ الاحترام.



جوليان يحظى أخيرًا بالحبّ

تلقتْ أليزا وصيفةُ السيدة دي رنيال مالاً وافراً عند موت أحد اقربائها، فذهبتْ إلى الكاهن شيلان وأخبرتْهُ أنها تودُ الزواج من جوليان.

سُرَّ الكاهنُ لصديقه لكنه دهشَ حينما أجابه جوليان:

- إن الآنسة أليزا لا يُمكنُ أن تكون زوجةً لي:

قال له الكاهن وقد أغمضَ عينيه نصف إغماضة:

- إحترسْ يا بني مما يعتملُ في فؤادك. إذا كنت لا تريدُ أليزا لانك مصمّمٌ على أن تُصبحَ كاهناً، فهذا حسن. لكنك تعلمُ أنه قد مضى عليَّ ستة وخمسون عاماً وأنا كاهن في فاريار. لقد أحببت الفقراءَ فلم أكسب شيئاً وها هم الآن يُجبرونني على مغادرة البلدة، على الكاهن

أن يختارَ بين النجاح في هذا العالم أو في العالم الآخر، هل ستكون كاهناً صالحاً؟ لستُ واثقاً من ذلك. «إذهبْ يا صديقي العزيز وفكِّرْ جيداً فيما قُلتُهُ لكَ ثم عُدْ إليَّ فاعطني جوابك».

للمرة الأولى في حياته، رأى جوليان نفسَهُ محبوباً من إحدى النساء فبكى من السرور وذهبَ إلى الغابات المشرفة على فاريار يُخفي فيها فرحَه ويردِّد: «آه! أشعر أنني على استعدادٍ لأن أهب حياتي ألف مرة من أجل ذلك الكاهن الطيب شيلان الذي برهن لي أنني على خطأ، فهو لا يعتقدُ أن بوسعي أن أُصبحَ كاهناً صالحاً لأنه أدركَ أنني أبغي النجاحَ في الحياة..»

أما السيدة دي رنيال فقد أدهشها ألّا تبدو السعادة على وصيفتها التي أصبحتْ ثريةً والتى كانت تتردَّدُ على الكاهن وتعود من عنده باكية. وأخيراً قالت لها أليزا يوماً أنها تودُّ الزواج من جوليان.

عندئذٍ تملّكتِ السيدة دي رنيال حمّى أرّقتْها فلم تعد تحيا إلا عندما ترى أليزا أو جوليان، واعتقدت حقاً أنها

ستُجن، فانتهى بها الأمرُ إلى المرض، وفي المساءِ وبينما كانتْ وصيفتُها تقوم بخدمتها، لاحظتْ أن الفتاةَ لا تزال تبكي فسألتها:

ـ ما بكِ يا أليزا؟

ـ إذا سمحتِ يا سيدتي، فسأقصُّ عليك كلَّ تعاستي.

ـ قولي.

ـ حسناً يا سيدتي، إنه يرفضني، ومن المؤكدِ أنَّ بعضَ الخبثاء قد قالوا سوءاً عني فصدَّقهم.

قالتِ السيدة دي رنيال، وهي تجد صعوبةً في التنفس:

ـ ومن ذا الذي يرفضك؟

ـ ومَنْ غيرُ السيد جوليان يا سيدتي؟ إن سيادةَ الكاهن يرى انه لا يجب أن يرفضَ فتاةً طيّبةً لأنها وصيفة، لكنه لم يستطعْ إقناعَهُ بذلك، وهو الآن واثقٌ من أن جوليان لن يُوافقَ أبداً.

ـ بودّي أن أبذلَ جهداً أخيراً وسأتحدثُ إلى السيد جوليان.

بعد ظهرِ اليوم التالي وطوالَ ساعةٍ كاملةٍ سعدتِ السيدة دي رنيال برؤيةِ جوليان يرفضُ يدَ أليزا ومالها، فشعرتْ بسعادةٍ عارمةٍ تغمُرها وأرادت البقَاء لوحدها مُتسائلة: «تُرى هل أكنُّ بعضَ الحب لجوليان؟».

أمسِياتٌ في الرّيفْ

عند وصول أول أيام الربيع الجميلة، نقلَ السيد دي رنيال أسرتَهُ إلى داره الكبيرة قرب قرية فارجي. بدا منظرُ الرّيف جديداً للسيدة دي رنيال فأخذتْ تقضي أيامها بالجري مع أولادها في البساتين والحقول.

أعجبتْ هذه الحياةُ الممتعةُ والممتلئةُ الجميعَ ما عدا أليزا التي لم تكن راضيةً لكثرةِ عملها، والتي كانت تردّد: «لم يسبقْ أبداً للسيدة أنِ اعتنتْ هكذا بلبسها، إنها تبدّلُ فستانَها مرتين أو ثلاث مرات في اليوم».

كان جوليان من جهته سعيداً كتلاميذه بالركض في الريف، مُستسلماً للذّةِ العيش وسط أجمل جبال العالم وحيداً بعيداً عَنْ أنظار الناس.

حلّ الصيف فاعتاد الجميعُ على قضاءِ السهرات تحت شجرةٍ كبيرةٍ لا تبعد سوى بضع خطوات عن الدار، يزيدُ ظلُّها من ظلمة الليل الداجي. ذات مساء تحدّث جوليان وأكثرَ من الحديث. وفي لحظةٍ ما لامستْ يدُه يدَ السيدة دي رنيال الموضوعةَ على أحدِ تلك الكراسي الخشبيّة التي تُنْثَرُ في الحدائق، فانتزعتْها بسرعة. عندئذٍ خطرَ لجوليان أن عليه أن ينجح بالاحتفاظ بها، لم يكن الأمرُ مُجرّدَ رغبة، بل واجباً بالنسبةِ اليه يخشى إذا لم يقمْ به أن يصبحَ أُضحوكةً للآخرين وأدنى مقاماً منهم، وهكذا طردتْ تلك الفكرةُ كلَّ سرورٍ من فؤاده.

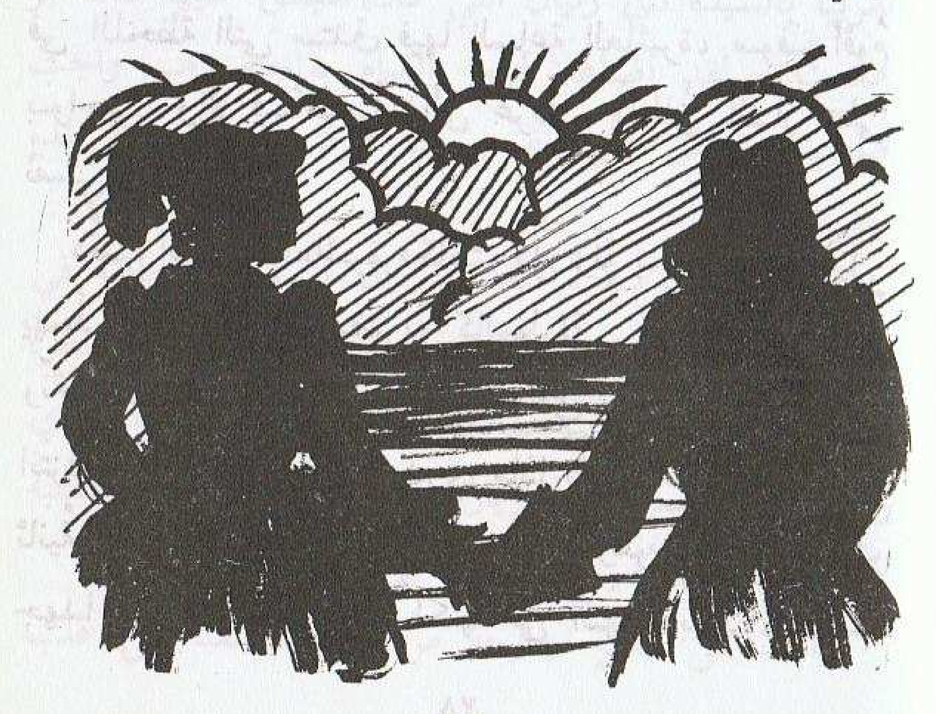
في اليوم التالي عند لقائه بالسيدة دي رنيال نظرَ إليها نظرتَهُ إلى عدوٍ عليه أن يُقاتله، فتساءلتْ: «لمَ هاتان العينانِ المختلفتانِ عن عينيْ الأمس؟ لقد كنت طيبةً معه ورغم ذلك فهو يبدو غاضباً».

في ذلك اليوم قلّ جوليان مِنَ اهتمامِهِ بالأولاد فلم يفكّر إلا بمطالعةِ أحدِ كُتبه المفضلة التي يجد فيها مثالاً للشجاعة. وعندما عاد فالتقى بالسيدة دي رنيال كان قد

حزم أمرَهَ وقررّ أنها يجب أن تسمحَ بأيةِ طريقةٍ كانتْ ببقاءِ يدِها في يده.

مالتِ الشمسُ للغروب ودنتِ اللّحظةُ التي سيحتاجُ فيها جوليان إلى الشجاعة فزاد خفقانُ قلبه. هبطَ الليلُ فسره أنه سيكون حالكَ الظلام إذ كانت السماءُ ملبّدةً بغيوم كبيرةٍ تدفعُها ريحٌ ساخنةٌ تنذرُ بعاصفة..

أخيراً جلسَ الجميع، واستقرتِ السيدة رنيال قرب جوليان الذي تنازعه واجبُهُ وخجلُهُ فلم يهتم إلا بنفسه وبقي صامتاً.



قلبٌ عامرٌ بالكِبرياء

دقّتْ الساعةُ مُعلنةً العاشرة إلا ربعاً دون أن يجرؤَ جوليان على فعل أي شيء، فغضبَ من نفسه وقال: «لستُ إذن سوى امرىءٍ ضعيفٍ تعوزُهُ الشجاعة! حسناً، في اللحظةِ التي ستدقُّ فيها الساعة العاشرة، سوفَ أقومُ بـواجبي وإلا فسأصعـدُ إلى غرفتي وأطلقُ النـار على نفسي».

دقّتِ الساعةُ العاشرة فكانتْ كلُّ رنّةٍ بمثابة وزنٍ ثقيلٍ يهبطُ على صدره ويضربهُ كالمطرقة. أخيراً وعند آخر رنّة، مدَّ يـدَه وأمسك بيد السيدة دي رنيال فسارعتْ إلى انتزاعها فوراً. ودون أن يدري ماذا يفعل عاد فأمسك بها ثانيةً وتعجَّب لبرودتها. شدَّ عليها بقوةٍ وهو يرتجفُ فبذلتْ جهداً أخيراً للتملّص منه لكنها في النهاية بقيت، طغتْ

عليه سعادةٌ غامرةٌ لا لأنه يحبُّ السيدة دي رنيال بل لأنه أفلح في مبتغاه.

تفرق الجميعُ بعد مُنتصف الليل وقد اسْتَسْلَمَتِ السيدة دي رنيال إلى فرحها فلم تُدِنْ حبَّها وحالتِ السعادةُ بينها وبين النوم.

أما جوليان فقد نام فوراً لشدة تعبه إذ أن الخجلَ والكبرياءَ ظلّا يتعاركان في فؤاده طيلةَ اليوم.

في اليومِ التالي، أُوقِظَ عند الساعة الخامسة فلم يفكر تقريباً بالسيدة دي رنيال التي كان سيشقّ عليها ذلك لو علمتْ به. لقد أضاعه غرور القيام بواجبه وهـو واجبٌ صعب، فأغلقَ على نفسه بابَ غرفته وشرعَ يقرأ بلذّةٍ جديدة.

عندما أزفتْ ساعةُ الغداء، كان قد نسيَ سعادتَه في الأمسية الماضية، وعند دخوله غرفةَ الطعام لم يجدِ النّظرةَ السعيدةَ التي كان يتوقّعُها بل الوجه العابس بالسيد دي رنيال الذي وصل إلى فاريار منذ ساعتين ولم يكتم غضَبه لأن جوليان لم يُدرِّسِ الأولاد في الصباح.

كانتْ كلُّ كلمةٍ جارحة من زوجها تنفذ إلى قلب

السيدة دي رنيال، أما جوليان فلم يستطع تركيز انتباهه للإصغاء إلى السيد دي رنيال لأن فكره كان ضائعاً في الأمور العظيمة التي قرأها... أخيراً قال: «كنت مريضاً..»

في الغد، عند الساعة الخامسة، سمح له السيد دي رنيال بعطلة ثلاثة أيام، فتعجّب جوليان ورغبَ برؤيةِ السيدة دي رنيال مُجدّداً وفكّر بيدها الجميلة. لذا نزلَ إلى الحديقة.

تركتْهُ السيدة دي رنيال ينتظرُ طويلاً، ولو كان جوليان يحبّها لرآها وراءَ نوافذِ الطابق الأول وقد أراحتْ جبهتها على الزجاج وراحتْ تنظرُ اليه، أخيراً قررتْ أن تظهر في الحديقة.

اقتربَ وقد أسعدَه تأمّل تلك المرأة وتعجّبَ لظهورها بمثلِ ذلك البرود. كان جوليان مُحتفظاً بكامل عقلِه، وسرعان ما وجدَ وسيلةً لإفهام السيدة دي رنيال أنها لا تُمثّل شيئاً ذا بال بالنسبةِ له. ودون أن يذكر شيئاً عن الرحلة الصغيرة التي سيقوم بها، حيّاها وانصرف.

نظرتْ إليه وهو راحل.. ثم وصلَ ابنُها الأكبر من آخر

الحديقة وهو يركض فعانقها قائلاً: «نحن طلقاء، فالسيد جوليان مسافر».

عندئذٍ شعرت السيدة دي رنيال ببرودة الجليد تَسْري في أوصالها فتذرّعتْ بصداعٍ أليم ولزمتْ فراشَها كي تبكي بحريّة وتتهرّب من الإجابة عَنِ الأسئلة..



رحلَةٌ..

بينما كانتِ السيدة دي رنيال عاجزةً عن طرد صورة جوليان من مخيلتها، كان هذا الأخير سعيداً بحريته، يسير فرحاً وسط أجمل المناظر الجبلية، كان قلبُ هذا الفتى الجاف، المليء بالطّموح لم يجد بعد أيّةَ لذةٍ في هذا الضّرب من ضروب الجمال. لكنه هذه المرة لم يستطع أن يمنع نفسَهُ من التوقّف والإعجاب بتلك المناظر الجميلة، العريضة، الساحقة.

أخيراً بلغَ أعلى الجبل حيثُ كان عليه أن يمرَّ للوصول إلى القريةِ التي يسكُنها صديقُه فوكيه، بائع الخشب الشاب. رأى كهفاً صغيراً فأخذَ يركضُ وبعد قليل استقرّ فيه وتساءل: «لمَ لا أقضي الليل هنا؟ لديَّ خبزٌ وأنا حرٌ طليق!».

أراحَ جوليان رأسهُ بين يديه وراحَ يتأمّلُ السّهلَ البعيد..

فضاعَ في الفرح بحريّته وبقيَ طويلاً في ذلك الكهف وقد بلغ من السعادة ما لم يبلغْهُ من قبل..

أدهشَ صديقَهُ عندما قرعَ بابَه في الساعةِ الواحدة صباحاً ووجده يضبط حساباته، إنه شاب طويل، مُشوّه التّكوين، ذو أنفٍ طويل ووجهٍ قاس. لكن تلك الهيئةَ غير اللطيفة تُخفي وراءَها رجلاً طيباً ولطيفاً. سأل الشاب جوليان: «ألم تعد على اتّفاقٍ مع السيد دي رنيال كيْ تصلَ هكذا دون سابق إنذار؟» فقصّ عليه جوليان كلَّ ما حدث. قال له فوكيه: «ابقَ معي واستلم حساباتي. إنّني أكسبُ من تجارتي وسيزدادُ ربحي أيضاً، لكن ليس هناك من يُساعدني وتعوزني الصفقات، فَلْنعملْ سوية..».

كان فوكيه مُعجباً بكلِّ ما يعرفُه جوليان وبكلٍّ ما يستطيعُ فعلَهُ...

عندما خلا جوليان أخيراً بنفسه في غرفته، حدّثها قائلاً:

«هذا صحيحٌ فبوسعي أن أربحَ هنا بضعةَ آلاف من الفرنكات ستفيدُني كثيراً، عندما أختار مهنةَ الجندي أو الكاهن، فبفضل هذا المال لن يشقَّ عليَّ شيء. لكن إذا

كان فوكيه يريدُ اقتسامَ ما يربَحُه معي وأنا لا أملكُ شيئاً من المال فذلك لأنه يأملُ أن يجعلَ مني صديقاً لا يفارقهُ أبداً». ثم تساءل بصوتٍ عال: «هل سأكذب على صديقي؟».

كان يعرفُ عادةً كيف يخفي ما يفكّر به فيتخلّص من اللحظات الصعبة، لكن في هذه المرة كان من المستحيل عليه ألا يقول الحقيقة لرجلٍ يُحبّه.

«ماذا؟ أأضيعُ سبعةَ أو ثمانيةَ أعوام فأبلغ الثامنة والعشرين! لكن نابليون في هذه السن كان قد أنجز أعظم أعماله! عندما أكسبُ بعضَ المال، مَنْ ذا الذي يضمنُ لي أن عقلي وإرادتي سيبقيان قادريْن على دفعي لأن أُصبحَ رجلاً عظيماً مشهوراً يتحدّث الناس عنه؟»

في صباح اليوم التالي قال جوليان لفوكيه الطيب الذي كان يعتبرُ الأمرَ مُنتهياً: «أريد أن أصبحَ كاهناً، لذا لا أستطيعُ البقاءَ معك لأساعدك».

ـ لكنْ هل فكّرت أنني سأعطيك على الأقل أربعةَ آلاف فرنك في السنة؟ ورُغم ذلك تريدُ العودةَ إلى دار السيد دي رنيال الذي لا يحسبُ لك حساباً؟ ومَنْ يمنعكَ

من دخول الدير بعد أن تكونَ قد كسبتَ ما يكفي من المال؟

لم يستطع أي شيءٍ أن يبدلَ رأيَ جوليان فانتهى الأمرُ بفوكيه إلى الإعتقاد أنه مجنونٌ نوعاً ما.



هَل سَيرحَلُ جُولْيَان ؟...

في ساعةٍ مبكّرةٍ من صباحِ اليوم الثالث، تركَ جوليان صديقَه كي يقضي اليوم وسطَ الجبل، فعادَ إلى كهفه الصغير لكنه لم يكنْ مطمئنّ البال. تساءل: «أليستْ لي إذن إرادة؟ أنا لم أُخلقْ إذن لأُصبح رجلاً عظيماً وأخشى أن تنتزعَ مني ثمانيةُ أعوام أقضيها في كسب عيشي تلك القوةَ الرّائعةَ التي تسمحُ بالنّجاح في أعظم الأعمال».

عندما رأى جوليان فارجي. لاحظَ أنه منذُ رحيله لم يفكّر بالسيدة دي رنيال. أما الآن فقد أصبحَ بوسعه أن يكسب مالاً كثيراً مع فوكيه، لذا لم يعد يرى الأشياءَ بنفس المنظار بل شعَرَ أنه مختلفٌ تمامَ الاختلاف عن ذي قبل.. وعندما سألتهُ السيدة دي رنيال أن يرويَ رحلته تعجّبَ لشحوبها. كانت في كلِّ لحظةٍ تخشى

سماعَه يقول انه سيغادرُ الدّار لكنه لم يتحدّثْ عن ذلك ولم يفكِّر به. وأخيراً تجرّأتِ السيدة دي رنيال فسألتْهُ بصوتٍ مرتعش: «هل ستترك تلاميذَك؟».

دهشَ جوليان لصوتِ السيدة ونظرتها فقال في نفسه: «هـذه المرأةُ تُحبُّني» ثم أجـاب بشيءٍ من الخجـل: «سيُؤلمني جداً أن أفارقَ أولاداً بهذا اللّطف، وُلدوا في أُسرةٍ كبيرة، لكن قد يكون ذلك ضرورياً، فعلى المرء أيضاً واجبات تجاهَ نفسه». قال ذلك وأسرَّ في نفسه: «في نظرِ المرأة لم أُولدْ أنا في أسرةٍ كبيرة.»

بقيَ جوليان حزيناً طول المساء. رغبتِ السيدة دي رنيال أن تقوم بجولةٍ حول الحديقة وبعد قليلٍ قالتْ أنها لم تعدْ تقوى على المشي، فأمسكتْ بذراعِ المسافر وخارتْ آخر قواها.

كان الوقتُ ليلاً وقد جلسا منذ قليل. تذكّر جوليان ما سبقَ أن سُمحَ له به فتجرّأ وأدنى شفتيه من ذراعِ جارتِهِ الجميلة ثم أمسكَ بيدها فشدّت على يده لكنّ ذلك لم يُسبّبْ له أيّةَ لذّة. سرحَ بفكره فتخلىّ دون وعيٍ عن يدِ السيدة دي رنيال التي جُنّتْ لهذه الحركة. وخشيةَ أن

تفقده، دفعها حُبُّها لأن تستعيدَ يد جوليان التي وضعها آلياً على الكرسي. عندئذٍ قال في نفسه «آه! لو شاهد كلُّ أولئك الناس المتكبّرين كلَّ ما يجري! كنتُ قبل سفري آخذ يدَها فتنتزعُها. أما اليوم فإنني أنتزعُ يدي لتأخذَها وتشدَّ عليها..».

حوالي منتصف الليل عادا إلى الدارِ فقالت له السيدة دي رنيال بصوتٍ منخفض: «هل ستتركُنا؟ هل سترحل؟».

أجاب جوليان وهو يتنفس بقوة: «يجب أن أرحل. إنني أُحبك وهذه خطيئةٌ وأيةُ خطيئةٍ بالنسبةِ لكاهنٍ شاب!».

في صباحِ اليوم التالي انفردتِ السيدة دي رنيال لحظة بجوليان وسألته: أليس لك اسمٌ آخر غير جوليان؟

لم يدرِ بمَ يجيب وأحزنه إظهار قلّة مهارته، لكن كبرياءَه منعته من القبول بذلك الفشل. في المساء جلس قرب السيدة دي رنيال في الحديقةِ فخطرتْ له فكرةُ جنونية وقرّب فمه من أذن المرأة الشابة قائلاً: «سيدتي، هذه الليلة، عند الساعة الثانية، سأذهبُ إلى غرفتك

فعليَّ أن أقول لك أمراً».

رفضتْ وقد استبدَّ بها العجب.

دقّت الساعةُ الثانيةُ صباحاً فنهضَ جوليان وهو يرتجفُ واضطر لأن يستندَ إلى الحائط إذ لم يسبق له أن عاش مثل هذه اللّحظاتِ الشّاقّة، لكنه لم يشأ أن يكون ضعيفاً. اتّجه إلى غرفةِ المرأة الشابة وفتحَ بابهَا بيدٍ مُرتجفةٍ مُحْدِثاً ضجّةً خفيفة.

رأتْه السيدة دي رنيال يدخلُ فغادرتْ سريرَها وقالت له:

«أيها التّعس!».

لم يجب جوليان بل ارتمى على قدميها فقبّل ركبتيَها وأخذ يبكي. بعد بضعَ ساعاتٍ خرجَ من غرفتها وقد نال مبتغاه فتساءل: «أليستِ السّعادةُ والحبُّ غير هذا؟»

في اليوم التالي لم تستطعِ الصبيّةُ أن تنظر إلى جوليان دون أن تحمر خجلاً ولم تقوَ على الحياةِ دقيقةً واحدة دون النّظر إليه، أما هو فلم يرمقها إلا بنظرةٍ واحدة فتساءلت: تُرى ألم يعد يُحبني؟

وعند الانتقال من غرفة الطعام إلى الحديقةِ شدَّت

على يده فنظرَ إليها بحب ووجدها جميلة. سُرّتِ السيدة دي رنيال بتلك النظرة فودّتْ لو أنه عاد لرؤيتها تلك الليلة وتركتِ الحديقة في ساعةٍ مُبكرة كي تأوي إلى غرفتها.

دقّتِ الساعةُ الواحدة صباحاً فخرج الفتى بصمتٍ من غرفته إلى غرفة السيدة.

في ذلك اليوم وجد سعادةً أكبر لكن حبّه لم يزل ضرباً من الطموح، إنه شعورٌ بالفرح لامتلاكه هو ابن بائع الأخشاب امرأةً بمثل هذا الجمال، تتحدّر من أسرةٍ كبيرة. وعندما كان جوليان ينسى طموحَه، كان يعجب بتلك المرأة ويجدها جميلة، طيبة ولطيفة. أما السيدة دي رنيال فقد كانتْ تحبّه كما لو كان ولدَها، وبعد لحظةٍ تعجب به كسيّدها، وتعتقدُ أنه سيصبحُ في يومٍ ما رجلاً عظيماً.



مَلِكٌ في فَاريَار

في الساعة العاشرة من مساء الثلاثاء الثالث من أيلول أيقظَ دركيٌّ فاريار بأسرها وهو يصعد الشارعَ الرّئيسي ويُصيح أنّ مَلِكاً. سيمرُّ في البلدةِ يوم الأحد التالي، وأنّ الحكومةَ تطلبُ إلى العمدة أن يُعيِّن حرس شرفٍ من الخيالة لاستقبالِه ومُواكبته في المدينة. أُعلم السيد دي رنيال فوراً بالخبر فعاد من فارجي ليلاً ووجد كلَّ البلدةِ تُناقشُ النبأَ في الشوارع.

عند الساعةِ السابعة، وصلتِ السيدة دي رنيالِ إلى فاريار مع جوليان والأولاد وكانتْ دارُها قد امتلأت بالسيدات اللاّتي جئْنَ يطْلبنَ إليها التحدُّث إلى السيد دي رنيال. فكلُّ واحدةٍ تُريدُ أن يكونَ زوجُها في عِداد حرس الشرف. لم تصغِ السيدة إلى كلّ ذلك الجمع فقد كانت مشغولةَ البال.

كانت ترغبُ منذ وقتٍ طويل أن يخلع جوليان ثوبَهُ الأسودَ الحزين ولو ليومٍ واحدٍ، لكنّها لم تَقُلْ له ذلك خوفاً من أن تجرحَ شعورَه. لذا تمكّنتْ بمهارةٍ غير معهودةٍ عند امرأةٍ طبيعيةٍ أنْ تصلَ إلى مأربها فعُيِّنَ جوليان في عِدادِ حرسِ الشرف.

صباحَ الأحد نزلَ ألوفُ من الفلاحين من الجبال المجاورة فملأوا شوارعَ فاريار تحت شمسٍ مُشرقةٍ جميلة. أخيراً وحوالي الساعة الثالثة اتقدتْ شعلةُ نارٍ كبيرةُ على جبلٍ صغيرٍ يبعدُ بضعةَ كيلو مترات عن البلدة، لِتُعلنَ أن الملك سيدخلُها بعد قليل.

صعِدَ نصفُ الناس إلى السطوح، وأطلّت كلُّ النساء من النوافذ، وتحرّكَ حرسُ الشرفِ كلٌّ واحدٍ على قريبٍ أو صديق، لكن الجميعَ تساءلوا مَنْ هو ذلك الفتى الرّائع الجمال. النّحيل القوام الذي كان يمتطي أجملَ جواد. وأخيراً عُرفتْ هويّته: إنه سوريل الابن، فسُمعتْ صيحاتُ تندّدُ بالعمدة: «ماذا؟ ألِأَنَّ هذا العاملَ الصغير مربي أولاده، تجرّأ فعينه حارس شرف!».

بينما كان الناس مشغولين به، كان جوليان أسعدَ الناس، فهو يُجيدُ اعتلاءَ صهوةِ جوادِه أكثرَ من جميع الأغنياء في تلك المدينة الجبليةِ ويقرأُ في أعين النساء أن الجميع يتحدثون عنه. .

بعد ساعة جرى جوليان إلى السيد شيلان حيث ارتدى بسرعة ملابسَ كاهن ولحقَ بالخوري الذي قصدَ الأسقفَ الشاب داجد. إنه ابن أخ الماركيز دي لامول.

أيقظتْ رؤ يةُ هذا الأسقفِ الشاب طموحَ جوليان فقال في نفسه: «إنه في ريْعان الشباب لا يكبُرني بأكثر من ستة أو ثمانية أعوام! وعندئذٍ لم يعد يفكّر مطلقاً في أن يكون جندياً. .

بعد قليلٍ وصلَ جميعُ الكهنة إلى الكنيسة من بابٍ جانبي وتقدم الأسقفُ في الآخر، يحيطُ به السيد شيلان وخوريٌّ آخر طاعنٌ في السن فنجحَ جوليان بالاقتراب من الأسقف.

أخيراً دخلَ الملكُ من الباب الرئيسي وسعدَ جوليان برؤ يته جيداً لوجودِه على بُعد ست خطوات منه، وإلى جانب الملك استرعى انتباهَهُ رجلٌ ذكيُ النّظرات، علم

بعد لحظة أنه السيد دي لامول، صديقُ السيد شيَلان القديم. وبما أن أهلَهُ كانوا قديماً آمري المنطقة فقد اختارتْهُ الحكومةُ لِمُواكبة الملك.

مضى وقتٌ طويل والناس يتحدثون في فاريار عن ذلك الاحتفال وعن الملك والأسقف والسيد دي لامول، لكن وقتاً أطول مضى وكل منهم يبحثُ عن الذي عيّنَ الفتى جوليان سوريل في حرسِ الشرف وهو ابن بائع الأخشاب. كانت عائلاتُ المدينة الثرية تُناقشُ صباحَ مساء تلك القضيّة الهامّة، وانتهى بها الأمرُ إلى الاعتقاد أن السيدة دي رنيال هي التي أوحتْ بالأمر. أما السبب، فعيْنا الصغير سوريل الجميلتان ووجنتاه النّضرتان فيها من الشرح ما يكفي..

بعد وقتٍ قليل مرض أصغرُ أولاد السيدة فأتعسها ذلك واعتقدت أن الله أراد مُعاقبتها على حبّها الجنونيّ لجوليان، لذا ناشدتْهُ: «أستحلفُكَ باسم الله أن تُغادر هذه الدار فالموت يُعاقبنى بقتل ولدي».

تأثر جوليان تأثّراً عميقاً وقال في نفسه: «هي تعتقدُ انها تقتلُ ابنَها بِحبّها لي ومع ذلك فالمسكينةُ تحبّني أكثر منه».

في إحدى الليالي ساءت صحةُ الولدِ كثيراً فأتى السيد دي رنيال لرؤ يته عند الساعة الثانية. وفجأة ارتمت السيدة الشابة على قدميْ زوجِها ورأى جوليان أنها تُوشك أن تُفضي له بكلٍّ شيء.

قالتْ له وهي راكعة: «اصغ إلي واعلم كلَّ الحقيقة، إنّني انا التي أقتلُ ولدي. لقد وهبتهُ الحياةَ وها أنا استردّها منه. إن الله يُعاقبني».

أجابها السيد دي رنيال: «يا لها من أفكارٍ مُضحكة!» ثم ذهبَ للنوم في غرفته.

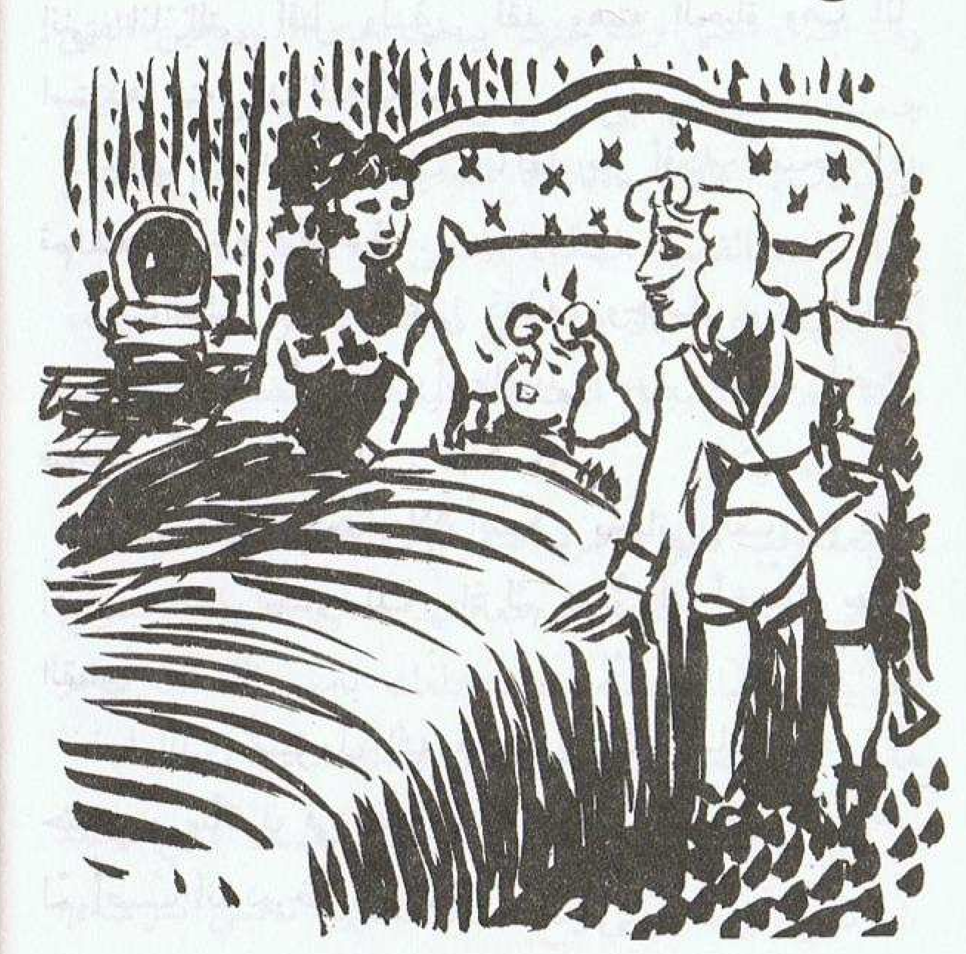
مرتْ عشرون دقيقة على ذهابه، وجوليان يرى المرأة التي يُحبها قد أراحتْ رأسها على سرير الولد، أخيراً فتحتْ عيْنيْها وقالتْ له: «إذهبْ»!

- إنّني على استعدادٍ لأن أُضحّي بحياتي ألفَ مرةٍ كيْ أعرفَ ما هو أجدى لكِ، اذ لم يسبقْ أن أحببتُكِ بهذا القدر.

فما الذي سيؤولُ اليه مصيري بعيداً عنكِ؟ أجل يا حبيبتي، سأكون في غايةِ التعاسة لكني سأرحل. أوه لمَ لمْ أُصَبْ أنا بمرضِ ولدك؟

ـ اوه! يا صديقي الوحيد، لمَ لستَ أنتَ والدَ ابني؟

منذ تلك اللحظة، شعرَ جوليان أنّه لم يعدْ يكنّ للسيدة نفسَ الحب، القائمِ على الإعجاب بجمالها والاعتزاز بامتلاك امرأةٍ من أُسرةٍ كبيرة. لقد تعاظمتْ سعادتهُ وأصبحَ حبّه أكثرَ عُمقاً وجمالاً.



في الدَّيْر

في بدايةِ الشتاء غادر جوليان فارجي كي يعودَ إلى فاريار. وفي اليومِ التالي لوصوله استدعاه الكاهنُ شيلان عند الساعة السادسة صباحاً، وقال له: «أنا لا أسألُكَ شيئاً بل آمرك ألاّ تقولَ لي شيئاً. بعد ثلاثة أيام سيكون عليك أن تذهب إما إلى دير بيزانسون وإما إلى دار صديقك فوكيه الذي لا يزالَ على استعدادٍ للتّعاون معك. لقد هيّأتُ ودبّرت كلَّ شيء لكن يجب أن ترحلَ وألاّ تعودَ إلى فاريار قبل سنةٍ على الأقل».

لم يُجب جوليان بل خرجَ وجرى ليُخبرَ السيدة دي رنيال التي وجدَها في غاية التّعاسة، قالت لهُ: «لا أدري ما الذي سأفعلهُ بدونك، لكن إذا متُّ فَعِدني ألا تنسى أبداً اولادي. أعطني يدَكَ! وداعاً يا صديقي.»

أثّر هذا الوداعُ البسيطُ في نفسِ جوليان فأجاب: «لا! لن أقبل وداعَكِ على هذا الشكل. سأرحلُ كما تشائين أنت لكن بعد ثلاثة أيام سأعود لرؤيتكِ ليلاً.

سرَّتِ السيدة دي رنيال لهذه الكلمات فجوليان يريد أن يراها ثانية وذلك يعني أنه يُحبها. لذا انقلبَ ألمها إلى فرحٍ هو أعظمُ ما شعرتْ به في حياتها.

أخيراً، رحلَ الفتى وهو يفكّر في كلِّ الساعات الحلوة التي قضاها مع السيدة دي رنيال، وفيما وعدها به عندما كان ولدُها مريضاً وكانتْ تُدين نفسها بسبب ذلك.

قضت السيدة تلك الأيام الثّلاثة وهي تحصي الساعات والدقائق. حلَّ ليلُ اليوم الثالث فظهرَ جوليان أمامها.

فكّرت: «إنهّا المرةَ الأخيرةُ التي أراهُ فيها، فمن المستحيل أن أكونَ أتعسَ مما أنا عليه الآن. أرجو أن أموت».

طلعَ النهارُ فرحلَ جوليان وهو يفكّرُ بتلك المرأةِ التي أحبّها كثيراً..

عندما رأى بيزانسون، قال في نفسه: «أيّ فارقٍ لو

وصلتُ إلى مدينة الحرب الجميلة هذه وأنا ملازمٌ في جيشٍ مكلفٍ بالدّفاع عنها! رأى من بعيدٍ بابَ الدير فاقترب بخطى وئيدة وساقين مُرتجفتين.

أخيراً قرّر أن يقرعَ الباب، وبعد عشر دقائق فَتحَ له رجلٌ يرتدي ملابسَ سوداء، وتبدو على وجهه إماراتُ الحزنِ والجد. نظرَ إليه جوليان فتسارعتْ دقاتُ قلبه وشرحَ له بصوتٍ ضعيف أنه يُريدُ التحدّثَ إلى السيد بيرار، مدير الدير.

أشار الرجل بيدهِ دون أن يقول كلمة، ففهم جوليان أنّ عليه أن يتبعه. صعدَ طابقين ثم أدخلهُ إلى قاعة مظلمة ذات سقف مُنخفض وتركه وحيداً. خافَ جوليان لأن صمتاً شبيهاً بصمتِ الموت كان يُخيّم على الدار كلّها.

بعد ربع ساعة بدتْ له يوماً كاملاً، عادَ الرجل وأشار ثانيةً بيده فتقدم جوليان ودخل قاعة أكبر من الأولى رديئةَ الإضاءة. وفي زاوية قُربَ الباب رأى وهو يمرّ سريراً خشبياً وكرسياً وكنبة. وفي نهاية الغرفة، قرب نافذةٍ ضيقةٍ ذات زُجاجٍ وسخٍ، رأى رجلاً جالساً أمام طاولة.

بقي جوليان واقفاً في وسط القاعة حيثُ تُرِكَ. انقضتْ عشر دقائق على هذه الحال ثم رفع الرجل الذي كان يكتب رأسهُ.

دهشَ الفتى للنّظرةِ المرعبة المنبعثة من عينيهِ الصغيرتين السوداويتين فلم يستطعِ القيامَ بحركةٍ واحدة.

قال له الرجل: «هل تريدُ أن تقتربَ أم لا؟»

تقدّم جوليان بخطى مرتجفة وكان على وشك السقوط عندما توقفَّ على بُعد متريْن من الطاولة الصغيرة.

ـ إقتربْ أكثر.

تقدّم جوليان مادّاً يده كمن يحاولُ أن يتعلّق بشيءٍ ما.

ـ ما اسمُك؟

ـ جوليان سوريل.

قال له الرجل وهو يرميه بنظرةٍ عابسة: لقد تأخرتَ كثيراً.

إنتزعتْ تلك النّظرةُ من جوليان آخر قواه فمدّ يدَه وتهاوى على الأرض.

دق الرجل جرساً. لم يعد جوليان يرى شيئاً أو يقوى

على الحركة لكنه سمع خطى تقترب. ثم حُمِلَ إلى الكنبةِ الصغيرة.

وعندما استطاعَ فتح عينيه قال في نفسه: «يجب أن تكون لديّ الشّجاعة، وأن أكتمَ على الأخص ما أشعر به».



في مواجهة السيّد پيرار

أخيراً رفعَ الرجل الذي كان قد استأنفَ الكتابةَ رأسهُ ونظرَ إلى جوليان نظرةً جانبيّة، ثم قال:

ـ هل تقوى على الإجابة؟

قال جوليان بصوتٍ ضعيف: «أجل يا سيدي».

ـ هذا حسن فالسيد شيلان أفضلُ كُهّانِ المنطقةِ وصديقي منذُ ثلاثينَ عاماً قد كتب إليّ كيْ أهتمَّ بك.

ـ آه! إذن فالسيد بيرار هو مَن أتشرفُ بالتحدّث إليه.

ـ بدون شك. لديّ هنا ثلاثةُ مئة وواحد وعشرون فتى يودُّون أن يُصبحوا كهنة، منهم سبعة أو ثمانية فقط أرسلَهُم إليّ رجالٌ كالسيد شيلان. وهكذا فستُصبحُ تاسعهم. سوفَ أهتمُّ إذن بك لكني سأطلبُ منك أكثر بكثير مما أطلبهُ من الآخرين.

إذهبْ وأوصد هذا البابَ بالمفتاح.

بذلَ جوليان جهداً كيْ يستطيعَ السَّير ونجحَ في ألّا يقع. لاحظَ أن نافذةً صغيرةً بقرب المدخل تشرفُ على الريف، فنظرَ إلى الأشجارِ نظرتَهُ إلى أصدقاء قدامى.

عند عودته سأله المدير باللّاتينيّة: «هل تتكلّم اللّاتينيّة؟» فأجابه جوليان وقد استعاد بعض قواه، بنفس اللّغة «أجل يا أبي العزيز».

تابعا حديثَهما باللاّتينية عن علم اللاهوت فدهشَ السيد بيرار لإلمام الشاب بكثيرٍ من المعلومات ورقّت نظرتُه.

حينئذٍ شعرَ جوليان براحةٍ حقيقيّة فقد تمالكَ نفسه وأجاب طيلة ثلاث ساعات عن جميع أسئلة السيد بيرار الذي قال له أخيراً: «يا بنيَّ إن السّمع في هذه الدار يعني الطاعة.»

بعد ذلك قَرَعَ المدير جرساً فدخلَ رجلٌ قال له: «أسكنْ جوليان سوريل في الغرفة رقم ١٠٣».

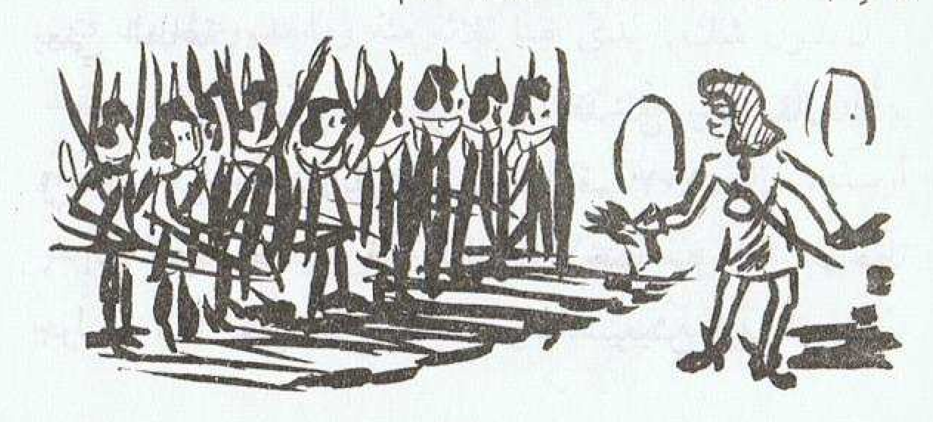
إنها غرفةٌ صغيرةٌ في الطابقِ الأخير من الدار لاحظَ جوليان أنها تطلُّ على الريف وانه سيعيشُ فيها لوحده،

فجلسَ على كرسيٍّ خشبيٍّ قربَ النافذة وغرق فوراً في سباتٍ عميق.

لم يكنْ ضوءُ النهار هو الذي أيقظَ جوليان صباحَ اليوم التالي بل نورُ الشمس، فوجدَ نفسَهُ نائماً على الأرض.

سارعَ بالنزول وكان متأخراً، فالتفتتْ إليه مئاتُ الأعين الفضوليّة، ردّ عليها بالصّمت وهو ينظرُ إلى رفاقه الثلاثمئة والواحد والعشرين كما لو كانوا أعداء لم يرَ في أعينهم الفاقدة الحياة سوى لذّةٍ واحدة هي لذّةُ الأكل. كانت تلك هي حال أولئك الناس الذين كان عليه أن يتفوق عليهم.

عملَ كثيراً بسرعة في تعلُم أمورٍ عظيمةِ الفائدة بالنسبة لكاهن، لكنه رغم مُحاولته عدم الظُهور لم يستطعْ أن يُعجِب رفاقه لاختلافه البيّن عنهم.



حظُّ جوليان

ذات صباح استدعى المدير جوليان وقال له : إنني جدُّ راضٍ عن عملك، لكنك عندما تقوم بعمل ما لا تفكّر بنتيجته وتنسى ذلك دائماً، إنّني أجدك طيباً وذكياً وأرى فيك شعلةً مُتَّقِدَةً لا ينبغي إطفاؤها. بعد خمسة عشر عاماً من الأشغال، سوف أُرغَمُ قريباً على مغادرةِ هذه الدار. وقبلَ رحيلي، أُريدُ أن أفعلَ شيئاً من أجلك. لذا أُعيّنكَ أستاذَ الدّراسات في الكتاب المقدس».

جُنَّ جوليان فرحاً وخطرَ له أن يسجد ويشكرَ اللهَ لكنّه استسلمَ لحركةٍ أكثر واقعية فاقترب من السيد بيرار وتناولَ يدَهُ فرفعها إلى شفتيه.

صاحَ المدير: «ما معنى هذا؟» فبرقتْ عينا الشاب

بفرح عميق ونظرَ اليه السيد بيرار مُتعجباً ثم تابعَ بصوتٍ ألطف:

«نعم يا ولدي. إنّني أحبُّك كثيراً ولن يُحبّك الناس اينما وضعكَ الله سيكون الناس دائماً شرّيرين معك، وإذا أظهرَ ذلكَ بعضهُم فلن يكون ذلك إلا بغرضِ الإساءَةِ إليك بصورةٍ أكيدة، لا تطلب العون إذن إلا من الله.»

لم يسمعْ جوليان صوتاً صدوقاً منذ وقت طويل، لذا أجهشَ بالبكاء ففتحَ له السيد بيرار ذراعيه وكانتْ لحظةً حلوة لكليْهما..

كان للمدير بعضُ الأعداء في بيزانسون حيثُ كان يهتمُّ بأعمالِ الماركيز دي لامول منذ ما يقرب الاثنتيْ عشرة سنة، لكنّ هذا الأخير عندما علم أنهم سيُفلحون عما قريب بطردِه من ديره، عرضَ عليه إدارة كنيسةٍ هامَّة قرب العاصمة..

بعد بضعة أيام رحلَ المديرُ إلى باريس وذهبَ أولاً لشكر السيد دي لامور الذي قال له في لحظة ما: إنّك تُعجبني ويمكنني أن أجرؤ على القول بأنّني أحبك فهل

تريدُ أن تكون سكرتيري؟ وفي هذه الحالة سيكون بوسعك أيضاً أن تستمر بالاهتمام بكنيستك..»

رفضَ السيد بيرار لكنه أدرك أن الماركيز بحاجة حقاً لأحد الأشخاص فخطرتْ له فكرةٌ وقال: لقد خلّفتُ في ديري شاباً فقيراً سيكون إذا لم يُخطىء ظَنّي في غايةِ التعاسة. هذا الشاب لا يعرفُ حتى الآن سوى اللاّتينية لكن ليسَ من المستبعد أن ينجح ذات يوم في أمور عظيمة، أنا لا أدري ما الذي سيفعلهُ، لكنّه يريد أن ينجحَ وسيذهبُ بعيداً..»

ـ ومن أين هذا الشاب؟

ـ من فاريار.. لقد قدمه إليّ السيد شيلان الذي كتب لي الشيء الكثير في مدح جوليان سوريل هذا، فربما أمكنكَ أن تُحاولَ جعلَه سكرتيراً لك، إنه يتمتعُ بإرادةٍ قوية وذكاء وقّاد..

ـ ولمَ لا؟

أخذ الماركيز ورقةً ماليّة من فئةِ الألف فرنك وقال له:

«أرسل هذا المال إلى جوليان سوريل واستقدمْهُ فوراً.»

ـ من الواضح أنّكَ تتصرفّ كساكني باريس، فهناك

سيرفضون السماح له بالرحيل وسيجيبونني أنه مريضٌ وأن الرسالةَ قد تكون فُقدتْ، الخ .

ـ سوف أكتب إلى الأسقف

ـ لقد نسيتُ أمراً. صحيح أن هذا الفتى ابنُ عاملٍ لكنه فخور بنفسه، ولن يكون نافعاً لك إذا جُرح كبرياؤه .

ـ يُعجبني هذا وسأجعلُ منه رفيقاً لابني فهل هذا كافٍ؟



الوصول إلى باريس

بعد بعضِ الوقت، استدعى أسقف بيزانسون جوليان واستقبله بكثيرٍ من الطيبة قائلاً: «إنني في غاية السّرور لعلمي أن الماركيز دي لامول قد طلبك، ففي باريس سيكون بمقدوركَ أن تُفلحَ في أمور عظيمة . . ».

في نفس المساء كان جوليان عند فوكيه الذي فاقَ تعجبه سروره للحياة التي سيعيشها صديقه، فقال له «سينتهي الأمرُ بمركزٍ تعرضه الحكومة، وهكذا فلن تتحدّث عنك الصحف دائماً بالخير، أُذكر أنه من الأفضل كسبُ ألفيْ فرنك في تجارة الخشب حيثُ المرءُ سيدُ نفسِه، من كسب أربعةِ آلاف فرنك عن طريق الحكومة».

لم ير جوليان في ذلك كلّه سوى أفكار رجلٍ ريفيّ

بسيطٍ في الوقت الذي سيُصبحُ فيه شخصاً مهماً، وأعمى عينيْه سروره بالذهاب إلى باريس.

في اليوم التالي وصلَ إلى فاريار حوالي الظهر وهو أسعدُ الناس فتوقَّف أولاً عند الكاهن الطيب شيلان الذي وجده قاسي الوجه لدرجةٍ تقرب من الشر قال له: سوف تتغدى معي، وفي هذه الأثناء سنستأجرُ لك جواداً آخر فتُغادر فاريار دون أن ترى أحداً».

- سمعاً وطاعة.

قـالهـا جـوليـان، ولم يتـطرق إلا إلى الـلاّهـوت واللاّتينية..

أُحضـرَ الجواد فرحلَ جوليان لكنه توقفَ بعد بضعةِ كيلومترات ودخلَ إحدى الغابات ينتظر فيها الليل الذي هبط حالك السواد.

وحوالي الواحدة صباحاً كان تحت نافذة السيدة دي رنيال وهو مُصمّمٌ على أن يرى محبوبتَه أو يموت. قذفَ حجارةً صغيرةً على شباكها وقلبه يخفقُ بسرعة.. فُتحتِ النافذةُ فتسلّق جوليان سلّماً وضمّ بين ذراعيه السيدة دي رنيال المُرتعشة.

قالتْ له وهي تجدُ صعوبةً متناهيةً في الكلام: «ما الذي تفعلهُ أيها التعس؟».

- لقد أتيت لأراكِ بعد أربعة عشر شهراً من التّعاسة، قضيتُها بعيداً عنك.

- أخْرجْ! دَعْني!

- لن أتركَكِ دون أن أتحدّث إليك هـل يُمكنُ أن تكوني لم تعودي تحبّينني؟

لم تستطعِ الإجابةَ فبكتْ. قال لها أنسيني الشخصُ الوحيدُ الذي أحْبَبْتُهُ! لمَ العيش اذن؟ «ثم أخذ ينتحبُ طويلاً بصمت، أخيراً سألها: قُولي لي ما الذي حصَل لك؟».

- لقد اشقاني بُعادك. أما الآن فإن طيبة السيد شيلان قد جعلت حياتي هادئة، كُنْ صديقاً لي يا جوليان، بل أفضل الأصدقاء.. لا تبكِ فبكاؤكَ يُؤلمني».

جلسَ جوليان إلى جانبِ المرأةِ التي يحبها كثيراً فضمها بين ذراعيه واستمر في البكاء، قال أخيراً: إني تاركُك يا سيدتي إلى الأبد، فأنا ذاهبٌ إلى باريس.

كوني سعيدةً ووداعاً».

سار بضع خطوات باتّجاه النافذةِ وفتحها فـأسرعتِ السيدة دي رنيال اليه وارتمت بين ذراعيه.

طلعَ النهارُ فطلبَ جوليان الذي جُنَّ حباً بالسيدة أن يقضيَ اليوم كله مُختبئاً عندها وألا يرحل إلا عند هبوط الليل، فأجابتْ: ولم لا؟

في اليوم التالي وبينما كان الفتى يعبرُ حديقةَ السيدة دي رنيال، أُطلقتْ عليه النارُ من بندقيةٍ فلم يُصبْ وبعد ساعة كان قد ابتعدَ عن فاريار.

عند وصوله إلى باريس ذهب لرؤيةِ السيد بيرار فشرحَ له الحياةَ التي تنتظرهُ عند السيد دي لامول قائلاً: اذا كنتَ عديمَ النّفعِ بعد بضعةِ أشهر فستعود إلى بيزانسون. سوف تعيش عند الماركيز وهو أحدُ أعظم شخصيات فرنسا، وسترتدي ملابس سوداء، أُريدُكَ أن تُتابعَ ثلاث مرات في الأسبوع دراساتك في علم اللاّهوت في أحدِ الأديرة الذي سأُقدمك إليه، وفي كلّ يوم ستجلس في مكتبة السيد دي لامول الذي يريدُ استخدامكَ بكتابةِ رسائلَ لأعماله. إنه يكتب بكلمتين في أسفلِ كلّ رسالة

يتلقّاها الردّ عليها وقد وعدتَ أنكَ بعد ثـلاثة شهور ستعرفُ كيف تصوغُ هذه الرّدود بشكلٍ يتمكن معه من توقيع ثمانية أو تسعة من كلّ اثني عشر رداً تُقدمها له. . وفي الثامنة مساءً سيكونُ عليك ترتيب مكتبه فتُصبح حراً في العاشرة».

ثم تابع السيد بيرار حديثه فقال: «قد تعرضُ عليك سيدةٌ عجوزٌ أو رجلٌ يبدو عليه اللّطف والوداعة مالاً مُقابل أن تُريهما الرسائلَ التي يتلقاها الماركيز. . »

قال جوليان وقد احمر وجهُه:

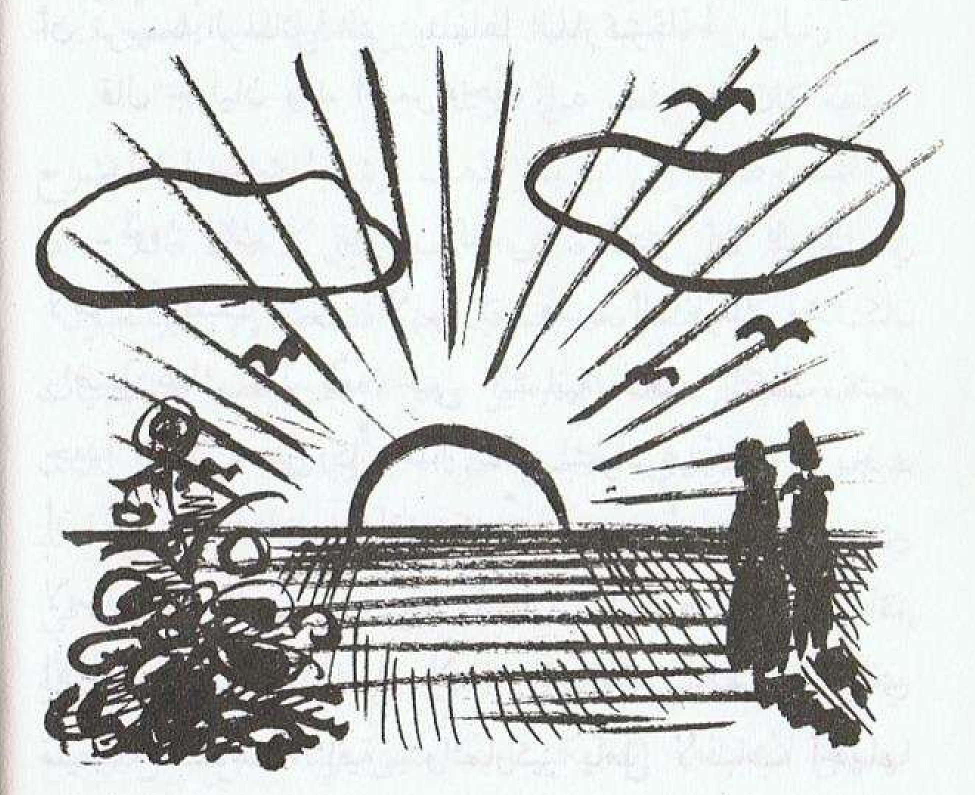
ـ آه! يا سيدي!

ـ أوه! إنك لا تعرف الناس. . أخيراً أن السيد دي لامول يُعطيكَ باديء الأمرِ راتبا قَدره ألفا فرنك وإذا كان راضياً عنك فسيرفعُهُ حتى الثمانية آلاف. لكنك تشعرُ جيداً انه لا يعطي كلَّ هذا المال لسواد عينيْك، اذ يجب أن تكون نافعاً، آه لقد كدتُ أنسى أسرة السيد دي لامول، إنَّ له ولديْن، بنتاً وشاباً في التاسعة عشرة، دائم الأناقة، غريب الأطوار لا يعرفُ عند الظهر ما الذي سيفعله الساعة الثانية. والماركيز يأمل لأسباب أجهلها

أنك ستصبحُ صديقَ نوربـار الشاب. . إنّني لم أُطل حديثي إليك إلاّ كي أساعدك على النّجاح بصورةٍ أفضل.

ـ إن والدي لم يُحبّني أبداً وذلك أكبر مصائبي، لكني لن أشكو بعد الآن فقد وجدتُ فيك أباً يا سيدي. .

قال السيد بيرار بشيءٍ من الضيق: «هذا حسن، هذا حسن! لِنستقلَّ عربةً فسأقدِّمُك فـوراً إلى السيد دي لامول».



دخولُ المجتمَع

قبلَ الوصولِ إلى مكتبِ الماركيز، اجتاز السيد بيرار وجوليان في الطابقِ الأول قاعات كئيبةً وجميلة. أخيراً دخلا أبشع قاعات تلك الشقّة الواسعةِ وكانت جدّ مظلمة فوجدا فيها رجلاً قصيراً نحيلاً ذا عينين مليئتين بالحياة. إنه السيد دي لامول.

بعد أقل من ثلاث دقائق عاد السيد بيرار وجوليان فاستقلاّ العربةَ وتوقفا قُربَ جادة فقاد الأولُ الثاني إلى خيّاطٍ ثم قال له عند خروجهما:

«الآن أردُ لك حريّتك، وبعد يومين سترتدي ملابسَ جديدة، وعند ذلك فقط يمكنُ تقديمُك للسيـدة دي لامول. في الصباحِ ستُحمَلُ إليك ملابسك الجديدة فكنْ عندي ظهراً. .

آه! لقد كدتُ أنسى. إذهبْ وأوصِ على أحذيةٍ وقمصان وقبعة في هذه العناوين».

نظرَ جوليان إلى العناوين فقال له السيد بيرار: «إنها مكتوبة بخطِّ السيد دي لامول فهو يفكّر في كلّ شيء. انه يُقرِّبُك منه كي تنوبَ عنه في التفكير بمثل هـذه الأمور، فهل سيكون بوسعك أن تفهم كلّ ما سيلمِّحُ لك به الرجل؟ هذا ما ستُظهره الشهورُ المقبلة..».

بعد يومين وجد جوليان نفسهُ وحيداً في مكتبةٍ في غايةِ الجمال، وكانتْ تلك اللّحظة مُمتعةً حقـاً. ولكيْ لا يستطيعَ أحدٌ رؤيةَ سعادته العميقة فقد اختبأ في زاويةٍ صغيرةٍ مظلمة تأمل منها بإعجاب أسماء الكتب العديدة فقال في نفسه:

«سوفَ أستطيعُ قراءةَ كلّ هذا فكيف لا أُسرُّ هنا؟»

استدعاه الماركيز في الساعةِ السادسة وقدّمه إلى امرأةٍ طويلةٍ شقراء وبدينة هي السيدة دي لامول التي لم تخصّه بنظرة.

ورأى أيضاً بعضَ الرجال فتعرّف بسرورٍ على الأسقف الشاب داجد.

في حوالي السادسة والنصف دخل شابٌ جميلٌ صغيرُ الرأسِ قالت له الماركيزة وهو يقبّلُ يدها: «إنك تتأخر دائماً».

فأدركَ جوليان أنه نوربار الابن ووجده لطيفاً.

جلسَ الجميعُ إلى المائدةِ فرأى جوليان فتاةً شقراء جميلة، جلستْ قُبالته فلم تُعجبه. لكنه عندما نظرَ إليها بإمعان، فكّر أنه لم ير أبداً عينين بمثل ذلك الجمال. كانت هي الآنسة ماتيلد ابنة الأسرة.

قبل الانتهاء من تناول الطعام قال السيد دي لامول لابنه: «أطلبُ اليك يا نوربـار أن تكون لطيفاً مع السيد جوليان سوريل، الذي سيعملُ معي.» ثم أضافَ مُوجهاً القول إلى جاره: «إنه سكرتيري».

نظرَ الحضور إلى جوليان فأحنى رأسَهُ قليلاً للتحيّة وأعجبتْ نظرتُهُ الجميع.

الخُطوَاتُ الأولى

في اليوم التالي كان جوليان يكتبُ رسائلَ في المكتبة عندما فتحت الآنسة دي لامول باباً صغيراً تحجبه بعضُ الكتب. وبينما كان جوليان يُعجب بذلك الباب الذي تصعبُ ملاحظته، بدت الآنسة دي لامور مُنزعجةً لمصادفتِهِ هناك، لكن جوليان كان هناك لذا لم يكن بوسعها أن تأخذ شيئاً.

أتى السيد نوربار إلى المكتبةِ في حوالي الساعة الثالثة كيْ يقرأ إحدى الصّحف فوجد جوليان الذي كان قد نسيهُ، ورُغمَ ذلك فقد كان لطيفاً وسأله: «أتريدُ القيامَ معي بنزهةٍ على الحصان؟ إن والدي يتركُ لنا حريتنا حتى العشاء».

ـ يا إلهي إن ذلك لم يحدث لي ست مرات في حياتي يا سيد نوربار!

ـ حسناً، ستكون هذه المرة هي السابعة.

في الحقيقةِ تذكر جوليان دخول الملك إلى فاريار فاعتقدَ أنه يُجيدُ ركوبَ الخيل أكثر من الآخرين.

عند العشاء أراد السيد دي لامول التحدثَ إلى جوليان فسأله عن أخبار نزهته، سارعَ نوربار إلى الإجابة دون أن يأتي على ذكر ما حدث. إلا أن جوليان عاد إلى القول: «إن السيد نوربار في منتهى الطيبة بالنسبة لي وأنا اشكرهُ كثيراً. لقد تكرّم بإعطائي أكثر الجياد وداعةً وجمالاً لكنه لم يكن يستطيعُ ربطي اليه، لذا سقطتُ وسط ذلك الشارع الطويل، قرب الجسر».

أطلقت الآنسةُ ماتيلد ضحكةً طويلةً حاولتْ إخفاءَها فلم تُفلح، ثم دفعها فضولُها للسؤال عن كيفيّةِ حدوث الأمر فأجابها جوليان بشكل طبيعي، عندها قال الماركيز لجاره:

«أعتقد أن هذا الكاهن الصغير طيبٌ جداً، إنه بسيط يروي مصيبتَهُ أمام السيدات».

عند انتهاء العشاء طرحتِ الآنسةُ ماتيلد مزيداً من الأسئلة على أخيها فتجرأ جوليان الذي التقتْ عيناهُ بعينيها

عدة مرات على الإجابة بنفسه، وبعد قليلٍ أخذ الثلاثة يضحكون كثلاثة فتيان من قريةٍ وسط الغابات.

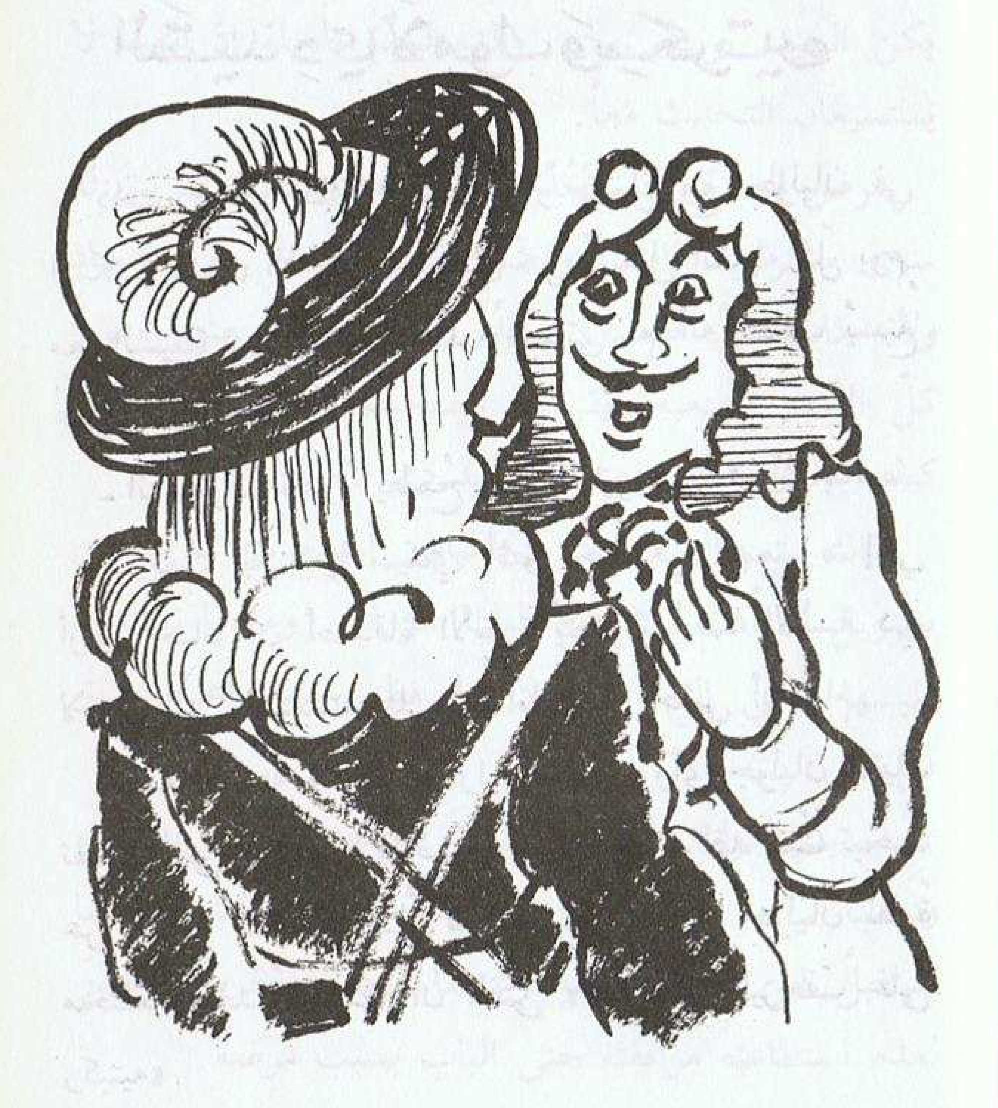
في اليومِ التالي تلقّى جوليان درسيْن في اللاّهوت ثم عادَ لكتابة حوالي عشرين رسالة، وعند الساعة الرابعة قرر الذهاب إلى السيد نوربـار الذي كان يهمُّ بركوب الحصان وانزعجَ حقاً، لكنه كان في غايةِ التَّهذيب فقال له «أظن أنك ستأخذُ دروساً عما قليل وبعد ذلك سأكون جدَّ سعيدٍ بالركوب معك».

ـ كنتُ أريدُ أن أشكرك على كلّ ما فعلتهُ لي، صدِّقني يا سيدي، فأنا أشعر بكلّ ما أنا مدينٌ لَكَ بِهِ. لقد خانتني مهارتي بالأمس، لكن إذا لم يكن جوادك مجروحاً، وإذا كان غيرَ مشغول، فإني أرغب أن تُعيرني إياه اليوم.

ـ لكنك يا عزيزي سوريل أنت الذي قد تتعـرضُ لحادث لا أنا، إنها السّاعة الرابعة وليس لدينا وقتٌ نضيعه فلْنذهبْ!

امتطيا جواديهما فسأل جوليان: «ما الذي يجب فعلهُ لتجنب الوقوع؟» فأجابَ نوربار مُقهقهاً: «أشياءَ كثيرةً، منها مثلاً إحناء الجسم إلى الخلف».

أوشك جوليان أن يسقط عشرين مرة، لكن النّزهة انتهت أخيراً بدون حـادث، فقال نـوربار لأختـه عند العودة: «أُقدمُ لكِ فتى مولعاً حقاً بالخطر».



السَّيد دِي لَامول وَسِكرتيره

ذات صباح كان السيد بيرار يعملُ مع جوليان في المكتبةِ فسألَ الأخير: «سيدي هل يُشكّل الغداء كلّ يومٍ مع السيدة دي لامول أحد واجباتي أم أنه عطفٌ يُسبغ عليّ؟».

ـ انه شرفٌ نادر، يطمحُ إليه الكثيرون دون أن ينالوه.

ـ ربما، لكنه يا سيدي أشقّ جزء في مهمتي، إنني أرى أحياناً أن أصدقاءَ الأسرة يُتعبون أيضاً الآنسة دي لامول التي اعتادت ذلك أما أنا فإني أخشى أن أنام.

سمعا ضجةً خفيفةً فأدارا رأسيهما ورأى جوليان ماتيلد تصغي إلى حديثهما فاحمرّ وجههُ خجلاً، لقد أتتْ تبحثُ عن كتابٍ فسمعتْ كلَّ شيءٍ ونظرتْ إلى جوليان نظرةً مختلفةً مُحدثَةً نفسها أن الفتى «لم يُخلق ليزحفَ على ركبتيه».

عند العشاء لم يجرؤ جوليان على النظر إلى الآنسة دي لامول التي تلطفتْ بالتحدث إليه.

بعد عدة شهور كانت ماتيلد ووالداتها في «هيار» ولم يكن السيد نوبـار يرى والدِه لمدةٍ طويلة إذ انهما لا يستسيغان التحدث معاً.

مرض الماركيز فلم يَعُدْ يستطيعُ مُغادرةَ داره ولم يبقَ له سوى سكرتيره، الذي وجدَه عظيمَ الفائدة لعمله الجاد ولأنه كان يحبُ صمتهُ، ويُقدِّرُ ذكاءه، فكان يهتم بتسويةِ كلّ الأمور الصعبة ويقرأ له الصحيفة وسرعان ما عرفَ كيف يختار ما يُثير اهتمام السيد دي لامول.

ذات يوم قال الماركيز لجوليان: إسمحْ لي يا عزيزي سوريل أن أُقدّم لك هذه البذلة الزرقاء. وعندما تريدُ أن تلبسها وتأتي إلي، ستكونُ في نظري ابن أعز صديقٍ لي».

لم يدرِ جوليان لَمَ لبسَ البذلةَ الزرقاء في نفس المساء وذهبَ لرؤيةِ السيد دي لامول. استقبله الماركيز كما يستقبلُ ابنَ أسرةٍ عريقةٍ وعندما نهض للخروج اعتذرَ لعدم استطاعتِه مرافقته حتى الباب بسبب مرضه.

التبسَ الأمرُ على جوليان فتساءل عما إذا كان الماركيز يسخر منه.

وفي صباحِ اليوم التالي قابلهُ بثوبه الأسود ومعه التّحاريرُ التي يجب أن يُوقّعها فاستقبله كالعادة. لكن الأمرَ اختلَفَ في المساء عندما ارتدى بذلَتهُ الزرقاء، اذ استقبلَهُ السيد دي لامول كشخصٍ هام.

مرّتْ شهورٌ وجد خلالها السيد وسكرتيرهُ مزيداً من السّرورِ بالالتقاء. وفي المساء عندما كان جوليان يرتدي ثوبَهُ الأزرق لم يكونا يتحدّثان أبداً عن العمل.

وفي أحدِ الأيام أدخلَ جوليان، وهو يرتدي السواد السّرور إلى قلب السيد دي لامول الذي احتفظَ به طيلة ساعتين وأرادَ أن يُعطيَهُ بعضَ الأوراق النقدية، فأجابه: «آملُ يا سيدي، ألاّ أخرجَ عن احترامي العميق لك إذا طلبتُ منك أن تسمحَ لي بكلمة».

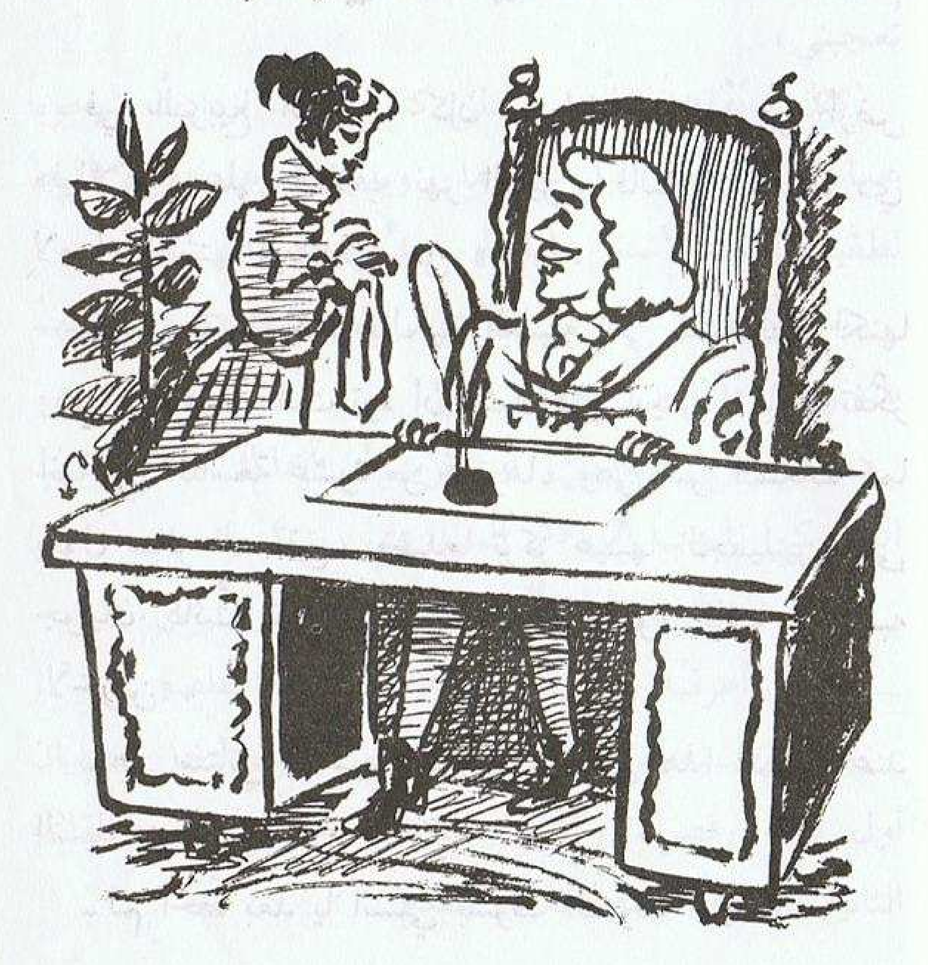
- قل يا صديقي.

- ليتكرم سيدي الماركيز، وليسمحَ لي برفض هذه النقود التي لم تُمنح لذي الثوب الأسود والتي ستمحو

اللطفَ الذي سُبغ على ذي الثوب الأزرق.

قال ذلك وحيّا باحترامٍ زائدٍ ثم خرجَ دون أن يُلقيَ نظرةً واحدة.

أعجب الجواب السيد دي لامول الذي أدرك إرادة سكرتيره الصّلبة، فأخذ يكلّفه كلّ يومٍ بأمرٍ جديد.



مَاتيلد دي لامول

في الربيع التالي، كان جوليان عائداً من أرض «فيللاكيه» على ضفافِ نهر السين، فالتقى بالسيدة دي لامول وبابنتها العائدتين من «هيار».

كانت ماتيلد تفكّرُ بالحياةِ الكئيبةِ التي ستستأنفُها لكنها وهي في هيار كانت تودُّ أن تكون في باريس. كانت تفكّر أنها في التاسعة عشرة من عمرها، وهي سنّ السعادة كما يقول سائر الحمقى، وعندما تُركّزُ عينيْها الجميلتين على جوليان كانتْ تقول لنفسها: «أما هو، فإنه لا يُشبه الآخرين».

ـ هل ستأتي يا سيد سوريل لترقصَ هذا المساء عند السيد دي ريتز؟

ـ لم أحظَ بعد يا آنستي بشرف التعرّف عليه.

ـ لقد طلبَ من أخي أن يُحضركِ إلى داره.

لم يُجبْ جوليان، فأجابتْ بلهجةٍ جافة:

ـ تعالَ مع أخي.

حيّا الفتى باحترامٍ ثم نظرَ إلى مِشْية الآنسة دي لامول التي نادتْها أُمها وقال في نفسه: «هذه الفتاةُ الطويلة لا تُعجبني».

كان ثوبُها ينسدلُ من على كتفيْها وقد ازدادتْ شحوباً عما كانتْ عليه قبل سفرها، وبدا شعرُها عديم اللون لطغيان اللون الأشقر عليه إلى حدٍّ جعلَهُ يبدو شفافاً.

تحدثتِ الآنسة دي لامول إلى شقيقها وهو يهمُّ بالخروجِ فدنا من جوليان قائلاً:

ـ يا عزيزي سوريل، أين تريد أن آخذكَ عند مُنتصفِ الليل كي نذهب إلى دارِ السيد دي ريتز؟

أجاب جوليان وهو يحيّي بانحناءةٍ حتى الأرض:

ـ إنني أعرفُ جيداً لمن أنا مدينٌ بهذا اللطف.

عند وصوله إلى منزل السيد دي ريتز، دخل جوليان أول قاعة رقص، وكان هناك ازدحامٌ أمامَ بابِ القاعةِ الثانية استحالَ عليه معه أن يتقدّم.

سمعَ الجميع يقولون إن الآنسة دي لامول هي الأجمل فبذلَ كلَّ جهده لرؤيتها لكن سبعة أو ثمانية شبابٍ أطول منه حالوا بينه وبين ما أراد. أخيراً تمكن من دخول القاعة الثانية وهو يقولُ لنفسه: «الجميع يجدون أنها الأجمل، فهي اذن جديرةٌ بأن أُمعن النظر فيها كيْ أُدركَ ما هو الأجملُ بالنسبةِ لهؤلاء الناس.

بحثَ عنها بعينيْه فنظرتْ إليه ماتيلد وكان يفصلُ بينهما خمسة أو ستة شبانٍ عَرف فيهم منْ سمعهم عند الباب. قالتْ له:

ـ لقد أمضيتَ الشتاء بأكمله هنا يا سيدي، أفليستْ هذه الحفلةُ أجملَ حفلاتِ الموسم؟

التفت الشبانُ ليروا مَنْ هو المحظوظ الذي يُطلبُ منه أن يُجيب.

ـ لا أستطيعُ أن أكونَ حكماً صالحاً يا آنستي فأنا أقضي حياتي بالكتابة.

قال ذلك وتراجعَ قليلاً بصورةٍ تنمُّ عن الاحترام وعزّةِ النفس فتبعتْهُ رغماً عنها بناظريهْا ورأتْ في إحدى الزوايا، بعيداً عن كل أولئكَ الناس الصاخبين، السيد ألتاميرا

الذي حُكم عليه بالإعدام في بلده بسبب أفكاره التي اعتبرتْ مُتحرِّرةً أكثر مما ينبغي، عندها حدّثت نفسها قائلة: «أي شرفٍ ذلك الذي يُسبغ على رجلٍ يُحكم بالإعدام! الشيءُ الوحيد الذي لا يُشترى.

اقترب شبّانٌ عديدون من الآنسة دي لامول فأجالت ناظريْها بين أولئك الفرنسيين الشباب متسائلة: من ذا الذي يمكن أن يجعل نَفسه يحكم بالإعدام؟».

ولكي تنقطعَ عن التفكير، شرعتِ الآنسة دي لامول بالرقص. ثم بحثتْ عن جوليان بعينيْها فرأتهُ في قاعةٍ أُخرى، يتحدّثُ مع السيد ألتاميرا، المحكوم بالإعدام.

مرّ بالقرب منها فالتقتْ منهما العيون لكنّه لم يعرِ الأمرَ انتباهاً لانشغالِ فكره.

رقصتِ الفتاةُ حتى الصباح وأخيراً مضتْ تعبة، حزينةً وتعيسةً إذ لم يُعرْها جوليان اهتماماً ولم تستطع أن تمنعَ نفسها من التفكير به.

رسالَة

منذُ تلك السهرة، أخذَ جوليان يمضي ساعاتٍ طويلةً بالتحدّث إلى الآنسة دي لامول. وفي بعضِ الأحيان كانا يتنزّهان معاً في الحديقةِ بعد العشاء، فيُبدي جوليان اهتماماً بكلِّ ما تقولهُ له، حتى أنه قد نسي فَقرَهُ ووجدَ أنها ذكيةٌ بما فيه الكفاية.

سألتْهُ ذات مساء: «بمَ تفكر يا سيدي؟» فدفعه كبرياؤُهُ لأن يُصارحها بكّل ما يجول في فكره واحمرَّ خجلاً وهو يقص حياتَهُ الفقيرةَ على شخصٍ ثري، لكنه حاولَ أن يبدو عزيزَ النفسِ لا يطلب شيئاً، فرأتْهُ ماتيلد في غايةِ الجمال.

بعد بضعةِ أسابيع كان جوليان يتنزّهُ في الحديقةِ وقد زالتْ عن محيّاه مسحةُ القسوة والبرود التي تعكس ألم الشعور بأنّه دون الآخرين مستوى، وذلك بعد أن رافق

حتى الباب الآنسة دي لامول التي قالتْ إنّ ألماً أصاب قدمَها وهي تجري مع أخيها. وعندما انفردَ بنفسه تساءل: لقد أمسكتْ ذراعي بشكلٍ مدهش! فهل تراني أُعجبها حقاً؟ إنها تصغي إليّ بوداعةٍ حتى عندما أقول لها كلَّ ما يجرحُ كبريائي، رغم تعاليها على الجميع. من المؤكد أنها لا تظهرُ هذه الوداعةَ وتلك الطيبة لأحد».

مرّت أيامُ جوليان كساعات، وفي كلّ لحظةٍ كان يُحاولُ الاهتمام بقصةٍ جدّيةٍ فيشردُ تفكيرُهُ ويستفيقُ بعد ربع ساعة خافقَ القلب تساورُه هذه الفكرة: «هل تُحبّني؟»

ذات مساء وافى جوليان السيد دي لامول إلى مكتبه ثم عادَ بسرعةٍ إلى الحديقةِ حيثُ كانتْ ماتيلد تتوسطُ مجموعةً من الشبان. وعلى بُعد بضعةِ أمتار منهم سمعَ اسمَهُ. فاقترب فصمت الجميع، وعندما رأى كلَّ تلك النظراتِ العدائيّة مُوجهةً نحوه، غادرَ المكان متسائلاً «هل قرّر جميعُ هؤلاء الشبان أن يسخروا مني؟ يجب الاعتراف أن ذلك طبيعي أكثر من حب الآنسة دي لامول لسكرتيرٍ فقير، سوف تسحقني مهارتُهم فأنا تعوزني مثل هذه المهارة، ينبغي إذن أن أرحل وأضع حداً لكل هذا».

كان الماركيز قد طلبَ منذ وقتٍ قصير إلى جوليان أن يهتمّ بأراضيه وبيوته العديدة في «لافندوك» مما يستلزمُ السّفر، لكن السيد دي لامول لم يشأ أن يُسافر سكرتيره وأخيراً أقنعتْهُ حُجج جوليان فوافقَ مما دفعَ الأخير إلى القول بينه وبين نفسه وهو يُحضّر لرحيله: «حسناً لقد كنتُ أمهرَ منهم».

لم يتحدث عن سفره لكن ماتيلد علمتْ في اليومِ التالي أنه سيُغادر باريس في الغد ولوقتٍ طويل، وفي ذلك المساء قالت أن رأسها يُؤلمها وذهبتْ تتنزّه في الحديقة، سخرتْ كثيراً من أخيها ومن الشبان الذين تناولوا العشاءَ على مائدتهم فانصرفوا وبقيتْ لوحدها مع جوليان الذي وجّهت إليه نظراتٍ حزينة.

قال الفتى لنفسه: «ربما كانت هذه النّظرةُ مقصودةً لكنّ أنفاسها تتسارع. مَنْ أنا كيْ أحكمَ على كلّ هذه الأشياء؟».

لم يجدا ما يقولانه لبعضهما فردّدتْ ماتيلد بتعاسة: «لا! إن جوليان لا يشعر بشيءٍ نحوي». ولحظةَ أراد أن يُحيّيَها لينصرفَ شدّتْ على ذراعه بقوةٍ وقالتْ له بصوتٍ

آلمه ونفذَ إلى قلبه:

«ستتلقّى بعد قليل رسالةً مني». ثم تابعتْ: «إن والدي يُقدّرُ خدماتكَ حقّ قدرها فيجبُ ألا ترحلَ غداً. جِد ذريعة». ثم ذهبتْ وهي تركضُ.

بعد ساعة سلّم أحدُ الخدم رسالةً إلى جوليان.



هَل سَيحزِمُ جوليانُ أمرَه؟

«إن رحيلَكَ يحملُني على الكلام.. وسيكونُ فراقُك فوق طاقتي».

قال جوليان مُحدِّثاً نفسه: «وأخيراً تلقيتُ أنا الفلاحُ الفقيرُرسالةَ حبٍّ من سيّدةٍ نبيلة! هذا أمرٌ لا بأس به». ثم أضافَ وهو يجتهدُ في إخفاء فرحه: «لقد عرفتُ كيف أبقى مُترفّقاً فلم أقل أني أحب».

سار الفتى في الحديقةِ وهو يكادُ يجن فرحاً ثم طلبَ مُقابلةَ السيد دي لامول الذي لم يكن لحسن الحظ قد خرج، فأظهر له بسهولة، وبواسطة بعض الرسائل أن عليه أن يُؤجّل سفرهُ إلى لافندوك. أجاب الماركيزُ مبدياً سرورَهُ ببقائه ورؤيته، فخرج جوليان لكن هذه الكلمات الأخيرة سببتْ له بعضَ الضيق.

في صباح اليوم التالي كان في المكتبة عندما أطلّتِ الآنسة دي لامول من الباب فسلمها ردّه، وأراد أن يكلّمها لكنّها لم تشأِ الإصغاء إليه وولّت هاربة. عندئذٍ ظنَ جوليان أنه قد يكون أخطأ بالبقاءِ في باريس وأن تأجيل سفره لم يُفده بشيء، وإذا كان الأمرُ لا يتعدّى اللعب فإنه بسفره يكون قد سخرَ منهم إذا كانوا هم يسخرون منه.

عادت الآنسة دي لامول حوالي الساعة التاسعة فرمت إليه برسالةٍ أخرى ثم هربتْ ثانية.

أعطى نفسَه فرصةَ السّخرية على صفحتين كاملتين ممن يودون أن يهزأوا به وفي نهاية رده، تحدث بكلمات مسلّية عن رحيله المقرَّر في صباح اليوم التالي.

وعندما انتهت الرسالة قال في نفسه: «سوف أسلمها لها في الحديقة».

نظرَ إلى نافذةِ الآنسة دي لامول فظهرتْ هذه الأخيرةُ وراء الزجاج. وعندما أراها الرسالةَ خفضتْ رأسها فصعدَ جوليان إلى غرفته عَدْواً والتقى على السلم الكبير بماتيلد الجميلة التي أخذتِ الرسالةَ بسرعة وعيناها طافحتان بالسرور.

عند الساعة الخامسة، تلقى جوليان رسالةً ثالثةً قُذفتْ من بابِ المكتبة فقال لنفسه ضاحكاً: «أيةُ عادةٍ مُضحكةٍ هذه، أن يتراسلَ الناس عندما يستطيعون التحدث بمُنتهى السهولة! من الواضح أن العدوّ يريدُ الحصول على عدة رسائل مني». قال ذلك وسارع إلى فتح الرسالة. قرأها فتغيّر لونُ وجهه لأنها كانت تقول: «أنا بحاجة لرؤيتك، ويجب أن أتحدث إليك هذا المساء. ففي اللحظة التي تدُق فيها الساعة مُعلنةً الواحدة بعد مُنتصف الليل، تواجدْ في الحديقة، وخذِ السلّمَ الكبير قرب البئر فأسندها إلى نافذتي واصعد إلى غرفتي، لن يُزعجك ضوء القمر».

تمتم جوليان «لقد أصبحَ الأمرُ جدياً وأوضحَ مما ينبغي. ماذا؟ إن بوسع هذه الآنسة الجميلة أن تتحدث إليّ بملء الحرية. من المؤكد أن هناك خطةً للإيقاع بي أو للسخرية مني. كيف أصعد على السلّم إلى الطابق الأول في نور القمر الساطع، سوف يرونني حتى من المنازل المجاورة، فكيف سأبدو وأنا على السلّم؟

ذهبَ جوليان إلى غرفته وشرعَ يحضّرُ أمتعتَهُ. وهو يغني، إذ قد صمَّمَ على الرحيل وعدم الرد. لكنه لم يكن

مرتاحَ البال فتساءل: «وإذا كان كل هذا جدياً فأصبحُ في نظر ماتيلد رجلاً عديمَ الشجاعة، فاقد القلب».

قضى وقتاً طويلاً يزرعُ غرفته بخطى سريعة، ويتوقّف أحياناً ليتساءل: «ماذا؟ أأقرر أنا بنفسي أنني أدنى من الآخرين؟ وأقضي حياتي كلّها أفكر بذلك، إن الإحجام بالنسبة لي سيكون أكبر المصائب، ولن أغفر لنفسي هذا الضعف، إذا رفضتُ لن يكون بوسعي أبداً أن أنظر إلى وجه أحد والتخلف عن الموعد معناه الخوف».

وكان لهذه الكلمات الفضلُ بانتزاع القرار.



السَّاعَةُ الوَاحِدَةُ صَبَاحًا

دقَّت الساعة الحادية عشرة، فخرجَ جوليان من غرفته وذهبَ بهدوء لرؤ ية ما يحدُثُ في الدار. كان كلُّ شيء هادئاً، فنزل واتخذ له مكاناً في زاويةٍ مظلمة من الحديقة حيثُ بقي لحظة، دنا بعدها من السلم ثم من المكان الذي يستطيعُ وضعَهُ فيه، مُحدثاً نفسه بأن عليه ألا يرتكبَ أي خطأ لان القضيةَ قضية شرفٍ ولن يجد لنفسه عذراً في القول أنه لم يفكّرْ بذلك.

كان الطقس في غايةِ الصفاء، فأشرق القمرُ حوالي الحادية عشرة وأضاء كلَّ الجدارِ على الحديقة مما دفعَ جوليان إلى القول: «إنها لمجنونة..».

دقّتِ الساعةُ الواحدة، فشعرَ الفتى بخوفٍ لم يسبقْ له

أن شعر به في حياته ولم يرَ سوى الأخطار التي لم تجعلْهُ يشعُر بأية لذة. كان قريباً من السلم الطويل فانتظر لحظة بدا له فيها صمتُ الليلِ العميق طبيعياً ،وعند الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة أسندَ السلّم إلى شباك ماتيلد وصعِدَ وغدارته في يده، مُتعجباً من سير الأمور على ما يُرام. اقترب من الشباك ففُتح بهدوءٍ وقالتْ له ماتيلد خافقةَ القلب: «ها أنتَ يا سيدي! إنني أتتبعُ حركاتك منذ ساعة».

كان جوليان في غاية الضيّق، لا يدري كيف يتصرف لعدم شعوره بالحب، في هذه اللحظة أضاء القمر غرفة الآنسة دي لامول ورسم فيها ظلالاً سوداء، ففكر جوليان أنه. قد يكون هناك رجالُ مختبئون يستحيلُ عليه أن يراهم.

سألتهُ ماتيلد وقد أسعدها أن تجد ما تقولهُ له : «ماذا تحملُ في جيبِ سترتك الجانبي؟». فأجابها وقد سرّه أن يهتدي إلى ما يردّ به عليها: لدي كل أنواعِ السلاح والغدّارات.

ـ يجب رفع السلّم.

ـ إنها طويلة جداً ويمكنُ أن تحطّم زجاجَ غرفِ الطابق الأسفل.

أضافتْ ماتيلد وهي تحاولُ التحدثَ بصوتٍ طبيعي: «يجب ألا يتحطَّم الزجاج. ربما استطعت إنزال السلم بحبل، ولدي هنا دوماً الكثير من الحبال».

ربطَ جوليان أعلى السلم بحبلٍ ثم أنزلهُ بعناية، وقد أطلّ من النافذة كيْ لا يلمسَ الزجاج مُفكِّراً بأن اللحظة مُؤاتية لقتله فيما لو كان أحدٌ يختبىءُ في غرفةِ الفتاة، لكن الصمت العميق مُخَيِّمٌ على الدارِ والحَدِيقةِ معاً.

لامسَ السلّم الأرضَ وتمكّن جوليان من إخفائه بين الزهور، قرب الحائط.

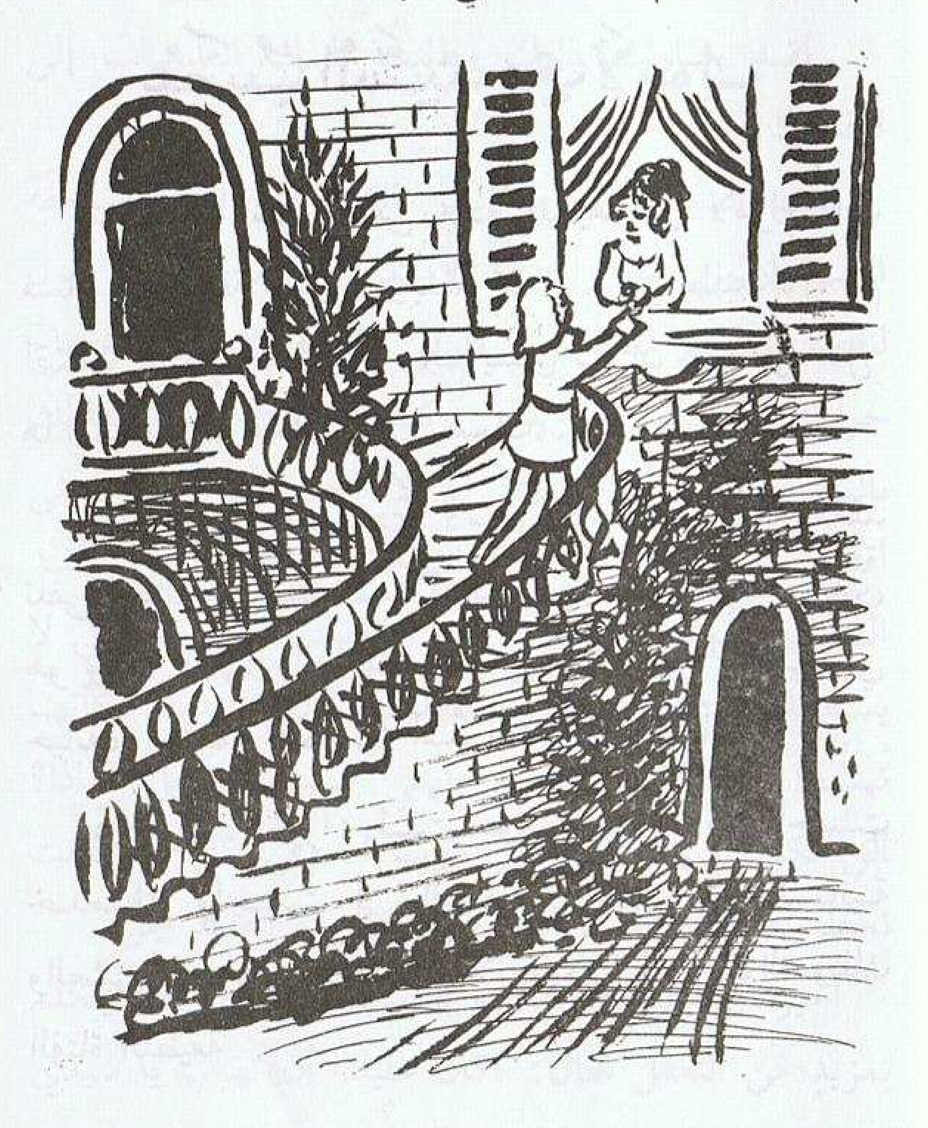
ـ ما الذي ستقوله والدتي عندما ترى غرساتها الجميلة وقد سُحقت؟ يجب أن ترمي الحبل، فمن الصعب شرح سبب وجوده عند نافذتي.

ـ وكيف أذهب أنا؟ قالها جوليان بلهجةٍ ضاحكة وهو يُحاولُ تقليد صوت إحدى الوصيفات.

قالت ماتيلد وقد سرها ذلك الجواب:

سوف تذهب من الباب.

ثم فكّرَتْ: «كم أنا مُحقّة في حبه!»



غضبُ السَّيدِ دي لامول

بعد بضعةِ شهور أتى خادمٌ للسيد دي لامول ذات مساء إلى غرفة جوليان وأبلغه أن الماركيز يطلبهُ فوراً ثم أضاف بصوتٍ منخفض: «لم يسبق لي أن رأيتهُ في مثلِ هذا الغضب، فحاذرْ على نفسك».

وجدَ جوليان السيد دي لامول وكأنه فَقَدَ صوابه، فقد تلقى رسالةً من ابنته كتبتْ له فيها أنها تحبُ جوليان الذي هو والدُ طفلها وأنها ستُصبحُ زوجته وللمرة الأولى في حياته، استعملَ الماركيز أشدَّ الكلمات إيلاماً.

ردّ جوليان أخيراً: لستُ سوى انسان. . لقد أحسنتُ خدمتَك وأجزلتَ لي العطاء. . لكني في الثانية والعشرين. . وفي هذه الدار لا يفهمُني أحدٌ سواك وتلك الفتاة اللطيفة. .

صاحَ الماركيز:

ـ كيف ؟ لطيفة؟ كان عليك أن تهربَ يوم وجدتَها لطيفة.

ـ لقد حاولتُ ذلك وطلبتُ إليك الذهابَ إلى لانفدوك.

تعب السيد دي لامول من السير في الغرفةِ وسحقَهُ الألم فارتمى على إحدى الأرائك وسمعه جوليان يقول لنفسه بصوتٍ منخفض: «ليس بالرجل الخبيث» فصاحَ جوليان بعد أن ركعَ على ركبتيه: «كلا لست كذلك بالنسبة لك». لكنه أدرك أنه لا يجب أن يرتمي على أقدامِ الآخرين فعادَ إلى النهوض، الأمرُ الذي أفقد الماركيز صوابَهُ فعاد يُوجِّهُ إليه الكلمات الجارحة التي لا يستعملُها سوى عديمي التهذيب والتي بدتْ وكأنها تُسلِّيه: «ماذا؟ هل ستدعى ابنتي السيدة سوريل؟ ماذا؟ ألن تكون سيدة كبيرة في باريس!» وفي كل مرة كانت تخطرُ له هاتان الفكرتان، كان يُخيل له أنه قد جُنَّ.

أخيراً وعندما بدأ تفكيرهُ بمصيبته يخف، أخذ يتكلم بمزيدٍ من التعقل فقال: «كان عليك أن تهرب يا سيدي

وواجبك كان يقضي بالرحيل.. إنك أوضع الرجال».

اقترب جوليان من الطاولة وكتب ما يلي: «إن الحيا شاقّةٌ عليّ منذ وقتٍ طويل، لذا سأضعُ نهايةً لها. إنني أطلبُ من سيدي الماركيز الذي ساعدني كثيراً والذي أشكره من أعماق فؤادي، أن يعذرني إذا أزعجه موتي في داره». أضاف: «ليتكرّمْ سيدي الماركيز بقراءة هذ الورقة. أُقتلني أو مُر خادمك بقتلي، الساعة الآن هي الواحدة صباحاً، وسأذهبُ للنزهة في الحديقة، قرب الجدار الأخير».

صاحَ به السيد دي لامول: «إذهب حيثما تشاء» ففكر: «إنني أدرك أنه سيُسرُ اذا لم أحمل خادمَهُ على قتلي... أنا موافقٌ على أن يقتلني، فهذه لذةٌ أقدمها له.. لكن من المؤكد أنني أحبُّ الحياة، وأن عليّ أن أعيشَ من أجلِ طفلِ ماتيلد من أجل ابني».

شغلته هذه الفكرةُ التي خطرتْ له للمرة الأولى، بعد الدقائق الأولى من نزهته، فتابع تفكيرَه: أنا بحاجةٍ إلى نصائحَ للتصرف مع هذا الرجل الذي انقلب حُبُّهُ غضباً

وفَقَدَ صوابَهُ فلم يعدِ المرءُ يدري ما يُمكن أن يفعلهُ. إن فوكيه بعيد جداً، ولن يتفهم الوضع، فلم يبقَ لي إذن غير السيد بيرار..».



صديقٌ عظيم

في اليوم التالي، كان جوليان يقرعُ بابَ السيد بيرار في ساعةٍ مبكرةٍ فلم يجده مُتعجباً لذلك، بل قال له: لقد فهمتُ هذا الحب، ولم أرغب تحذيرَ الأب مراعاةً لك، أيها التعيس..

ـ وما الذي سيفعلُهُ؟

في باريس كانت ماتيلد في غاية التعاسة. قابلتْ والدَهَا حوالي الساعة السابعة فأراها رسالةَ جوليان وارتجفتْ خوفاً من أن يضعَ حداً لحياته.. قالت لوالدها: «إذا مات فسأموت أنا وستكونُ أنت السبب في موته.. ربما سرّك ذلك..».

لم يجد السيد دي لامول ما يُجيب به فلاذ بالصمت.

لم تظهر ماتيلد ساعة الغداء، فبدأ والدُها ينظرُ إلى

الأمور نظرةً أكثَر تعقلاً ومع ذلك فقد سُر لغيابها عن المائدة ولبقاء السيدة دي لامول جاهلة بما يجري.

وصلَ جوليان عند الظهر، ولم يكد يترجّلُ عن جواده حتى أرسلت ماتيلد بطلبه وارتمت ببين ذراعيْه ثم أبلغتهُ باكيةً أنها قد قرأتْ رسالته. أضافتْ: «قد يُغير أبي رأيه، فكن لطيفاً وبادرْ بالرحيلِ إلى فيللاكييه. عُدْ إلى صهوةِ جوادِكَ وغادر الدارَ قبل أن يتركَ المائدة».

بدا على جوليان تعجبٌ ممزوجٌ بالقسوة فعادتْ إلى البكاء وقالت له وهي تضمه بين ذراعيْها: «دعني أدبر أمورنا. إنك تعرفُ جيداً أنني لا أطلبُ منك الرحيلَ وأنا راضية.. أُكتبْ إليَّ باسم وصيفتي ودعْ غيرك يكتب العنوان. أما أنا فسأبعث إليك برسائلَ طويلةٍ جداً.. إلى اللقاء.. اهرب!».

جرحتْ هذه الكلمةُ الأخيرة كبرياءَ جوليان لكنه رغم ذلك رحل..

رفضتْ ماتيلد كلَّ ما قدمه لها والدها، اذ لم يكنْ يهمها سوى أن تُصبحَ السيدة سوريل. وتعيش عيشةً فقيرة في سويسرا، أو عند والدها في باريس، أمام هذه الإرادة

الصلبة، انتابت الماركيز نوباتُ غضبٍ خطيرة ثم تعبَ فلم يعد يدري ما يُقرر. وفي لحظةٍ من لحظات الطيبة قال لابنته «إنني أمنحكِ عشرة آلاف فرنك سنوياً، فاكتبي إلى جوليان».

تلقى جوليان هذا النبأ، فعادَ وسكن في دارِ السيد بيرار الذي كان قد أصبحَ بعد رحيله أكثر الأصدقاءِ نفعاً لماتيلد. وفي كل مرة أجاب فيها عن أسئلةِ الماركيز، كان يظهرُ له أن جوليان وابنته يجب أن يتزوجا وأن أي قرار آخر سيكون خطيئةً كبرى في نظر الله.

لم يعد السيد دي لامول يعتقدُ أنه محقٌّ في غضبه لكنه لم يقوَ على الغفران، فكان يُمني نفسه أحياناً بموت جوليان في حادثةٍ ما.



قلبُ أبٍ

بعد شهرٍ بقيتِ الحالُ على ما هي عليه وأدرك جوليان أن السيد دي لامول لم يتخذ بعد أيَّ قرار في الأمر.

ذات يوم قال هذا الأخير لابنته: «لا أريد أن أعرف أين يوجد هذا الرجل. فابعثي اليه بهذه الرسالة».

قرأتْ فيها ماتيلد ما يلي: «إن أراضي لافندوك تغل سنوياً ٢٠٦٠٠ فرنك أهبُ منها ١٠٦٠٠ فرنك لابنتي و ١٠٠٠٠ فرنك للسيد جوليان سوريل. ومن الطبيعي أن أهبَ الأراضي أيضاً..».

قالت الفتاة: «أشكرك كثيراً. سنعيشُ في لافندوك التي يُقال أنها بجمال ايطاليا».

دهشَ جوليان كثيراً لهذه الطيبة فهو لم يعد ذلك الفتى ذا الفؤاد الجاف القاسي، كما عرفناه، اذ لم يعد يفكر

إلا بحياةِ ولده. أما بالنسبةِ لماتيلد فإن أقصى ما تطمحُ إليه هو الاقترانُ بجوليان.

ذات يوم كتبتْ لوالدها: «سوف أُغادرُ المنزل وأذهبُ إلى دار السيد بيرار الذي سيعقدُ قراننا يوم الخميس المقبل، وبعد ساعة سنكون في طريقنا إلى لافندوك. لن نعود إلى باريس إلا إذا امرتنا بذلك، إنني أتوسل إليك يا والدي وأنا جاثية على ركبتيّ أن تأتي إلى كنيسة السيد بيرار يوم الخميس».

تلقّى السيد دي لامول هذه الرسالة فشعرَ بالكثير من الحرج لأن عليه أن يختار، لكنّ العادةَ تغلبتْ عليه فكتب إلى ابنته لكسب الوقت : «لا تفعلي ما قررتِهِ، لقد عُيِّنَ السيد جوليان سوريل دي لافارناي مُلازماً وهكذا ترين ما أفعلُه له. لا تطلبي مني شيئاً وليلحقْ بالجيش خلال أربعٍ وعشرين ساعة».

كان حبُ ماتيلد وفرحها دون حدود، فلقد ربحت معركتها التي خاضتها من أجل جوليان، لذا بادرتْ بالرد: «لقد نسيني والدي وسط هذه الطيبة العظيمة. سوف أنقلُ النبأَ إلى السيد دي لافارناي إذا وعدتني أنني سأتزوج

علناً في الشهر المقبل في فيللاكييه. ولأشكرك يا والدي العزيز لأنك انقذتني من اسم سوريل».

لكن الفتاةَ دهشتْ للرد الذي تلقته: «أطيعي وإلا استعدتُ ما أعطيتُه. إنني لا أعرف بعد ماهية فتاك جوليان ومعرفتكِ أنتِ نفسك له تقل عن معرفتي. ليلتحقْ بالجيش وليقمْ بواجبه وسأُعلِمُك بنواياي خلال بضعةِ أيام.

لم تجدْ ماتيلد مناصاً من الإطاعة، وفي المساءِ عندما نقلت إلى جوليان نبأ تعيينه ملازماً، جُنَّ فرحاً لأن ما طمح إليه طيلةَ حياته قد تحقق، ولأن هذا الطموح قد أزكاه حبه لولده. نظرَ إلى ماتيلد وأسر في نفسه: «إن والدها لا يستطيعُ العيش بدونها وهي بدورها لا تقوى على ذلك بدوني».



عاصفة

كان جوليان ملازماً منذ بضعةِ أيام فقط لكنه كان يعرفُ أنه لكي يكون رئيساً عظيماً في الثلاثين من عمره، يجب أن يكون أكثرَ من ملازم، فلم يعد يفكِّرُ إلا بالمجد وبابنه.

في هذه اللحظة أتـاه خـادمٌ من خدمِ أسرة دي لامول حاملاً إليه رسالةً من ماتيلد تقول فيها «لقد ضاع كلُّ شيء فتعال باسرع وقتٍ ممكن وانتظرني في عربةٍ قرب باب الحديقة حيثُ سأتحدث إليك. لقد ضـاعَ كلّ شيء لكن تأكد أنك ستجدني دوماً إلى جـانبك لمساعدتك وقتَ الشدة . أحبك».

بعد رحلةٍ سريعةٍ كالبرق وصل جوليان إلى قرب باب الحديقة الصغير، ففُتح وخرجتْ منه ماتيلد لترتمي بين

ذراعيْه. ولحسن الحظ لم تكن الساعة قد تجـاوزت الخامسة صباحاً فخلا الشارع من المارة. قالت: «لقد ضاع كلُّ شيء ورحلَ والدي الذي لم يقوَ على رؤيتي باكية ليل الخميس، دون أن يعرف أحدٌ وجهته، إقرأ رسالته». ثم صعدت إلى العربة مع جوليان الذي قرأ ما يلي:

«كان بوسعي أن أغفر كلَّ شيء لكني لا أستطيعُ أن أسمحَ لأحدٍ بمحاولة الزواج منك لمجرد أنك غنية. هذه هي الحقيقة المحزنة أيتها الابنةُ المنكودة الحظ، تأكدي أنني لن أدعك أبداً تتزوجين من هذا الرجل. إنني أمنحه عشرة آلاف فرنك سنوياً إذا قبل بالعيش بعيداً خارج حدود فرنسا أو في أمريكا. إقرئي الرسالة التي بعثتُ بها إلى السيدة رنيال. لقد طلبَ إليّ هو بنفسه أن أكتب إلى تلك السيدة. إن بقائي في باريس ورؤيتك يُؤلمانني، فلا تفكري بعد الآن بذلك الإنسان الوضيع إذا أردتِ استعادة والدك.

سأل جوليان : «وأين رسالة السيدة دي رنيال؟».

كانت الرسالةُ طويلةً جداً وبخط السيدة دي رنيال، قال

جوليان بعد قراءتها: «لا أستطيعُ أن أدين السيد دي لامول فهو على حق. أيَّ أب يقبل أن يعطي ابنته لمثلِ هذا الإنسان؟».

ودون أن يضيفَ كلمةً واحدة، قفزَ الفتى من العربةِ وأخذَ يعدو، حاولتْ ماتيلد اللحاقَ به، لكن نظرات الباعة الذين يعرفونها حَمَلتْها على العودة إلى الحديقة.

أما جوليان فقد سافرَ إلى فاريار في عربةٍ طلب إلى سائقها أن يُسرِعَ. أثناء سفره السريع أراد أن يبعثَ رسالةً إلى ماتيلد، لكن يدهُ لم تقوَ على الكتابةِ.

وصلَ إلى فاريار صباحَ الأحد فقصدَ دكان بائع السلاح ووجد عناءً كبيراً في إفهامه أنه يُريدُ غدارتيْن ثم طلبَ من الرجل أن يحشوهما له.

سمعَ ثلاثَ دقاتٍ ورأى الناس يدخلون الكنيسة فدخلها هو أيضاً ووجد نفسه على بعد خطواتٍ وراء السيدة دي رنيال فارتجفتْ ذراعه لرؤ ية السيدة التي أحبَّها كثيراً وقال لنفسه: «لا أستطيعُ وليست لدي القوة للقيام بذلك».

وفي إحدى اللحظات أخفضت السيدةُ دي رنيال رأسها

فلم يعد جوليان يتعرفُ عليها جيداً. عندئذٍ أطلقَ عليها النار من غدارته فلم يُصبها ثم أطلقَ النارَ ثانيةً فسقطتْ أرضاً.

تسمّر جوليان في مكانه ولم يعد يرى شيئاً وعندما استعاد بعضَ وعيه رأى الجميع يفرون من الكنيسة وهم يصيحون فتبعهم بخطى وئيدة. أرادت إحدى النساء أن تسبقَ غيرها بالهرب فدفعتهُ ورمتهُ لكنه تعلقَ بقدمي كرسي. وبينما كان ينهض شعر بيدين تشدان على عنقه وكانتا لدركيٍّ اعتقله.



في سجن فاريار

اقتيد جوليان إلى السجن وتُركَ لوحده في إحدى غرفه بعد أن أُحكم إغلاق الباب عليه، لكن ذلك كله لم يكن يُشغل تفكيره، وعندما استفاق من ذهوله صاح: «حسناً! لقد انتهى كلُّ شيء.. أجل فسأموتُ بعد خمسة عشر يوماً إذا لم أقتل نفسي قبل ذلك».

كان رأسهُ ثقيلاً يُؤلمُه لكنه تمكن أخيراً من النوم.

كانتْ السيدة دي رنيال جريحة فلقد اخترق الطلق الأول قبعتها وأصابها الطلق الثاني في كتفها في اللحظةِ التي كانتْ تلتفِتُ بها. قال لها الطبيب الذي عالجها: «أنا واثقٌ أنك لن تموتي بسبب إصابتك».

عندها شعرتْ بألمٍ عميق فلقد كانتْ ترغبُ بالموت منذ زمن طويل لأن رحيل جوليان قد أَتعسَها جداً ولأَن

الرسالةَ التي كتبتها إلى السيد دي لامول قد آلمتها أيما إيلام.

خلتْ بنفسها فاستدعتْ وصيفتها أليزا وقالت لها وقد احمرت خجلاً: «إن الذي يحرسُ جوليان في السجن رجلٌ خبيث، سيعامله دون شك بمنتهى القسوة لاعتقاده أن ذلك يسرني.. إن هذه الفكرة تُؤلمني. ألا تستطيعينَ أن تسلمي هذا الرجل هذه الرزمة التي تحوي بعض المال، باسمك انت؟»

عندئذٍ أصبحَ الحارسُ أشدّ لطفاً مع جوليان، وأتى قاضٍ لرؤيةِ الفتى في السجن فقال له جوليان: «لقد سببتُ الموت وأردته بعد أن اشتريت الغدارتين وحشوتهما عند بائع السلاح فلان. القوانين واضحة: إنه الموتُ وأنا بانتظاره».

دهشَ القاضي لهذا الأسلوب بالرد، فأراد أن يطرحَ عليه أسئلةً عديدةً، لكن جوليان، أجابه باسماً، «ألا ترى أنني أعترفُ بكلِّ أخطائي كما ترغب؟ إذهب يا سيدي فستُسرُّ بالحكم عليَّ لكني أفضل ألا أراك هنا ثانية».

عندما أصبحَ لوحده فكر بأن عليه واجباً مُحزناً هو

الكتابةُ للآنسة دي لامول وبعد أن بعَث إليها بالرسالة شعَر بالتعاسة تستولي عليه إذ سيقضي الموت على كلِّ ما راود فؤاده من آمال. لقد هيأته حياته للتعاسة، وكان يردد: «لقد قتلتُ فسأموت: هـذا كلّ مـا في الأمر، سأموتُ لكني صفّيتُ حساباتي مع الجميع فلم أعدْ مديناً بشيء لأحد». كل ذلك بدا له طبيعياً فأضاف: «لم يعد لدي ما أفعله على هذه الأرض». ثم نام.

أُوقظ حوالي التاسعة مساء وحُملَ اليه ما يأكله فسأل:

ـ ما الذي يُقال في فاريار؟

أجاب الرجل وقد بقيَ رغم إصراره على الصمت:

ـ إن خدمتي يا سيد جوليان تُجبرني على الصمت.

بعد انتهائه من الأكل قال له الرجل بلطفٍ كاذب: «إنني أعرفك جيداً فلقد كنت صديقاً لي يا سيد جوليان، وهذا ما يدفعني إلى الكلام، إنك فتى طيب وستُسَرُّ إذا أعلمتك أن صحة السيدة دي رنيال تتحسن. .».

صاحَ جوليان وهو ينهضُ من وراءِ الطاولة:

ـ ماذا؟ ألم تمت!

قال الرجل بغباء:

ـ ألم تكن تعرفُ شيئاً؟ حسناً، لقد ذهبتُ إلى الطبيب إكراماً لك فقصّ عليَّ كلَّ شيء. .

سأله جوليان وهو يتقدّم منه:

ـ ألن يُميتها جرحها؟

خافَ الرجل

سأله جوليان وهو يتقدم منه:

ـ ألن يُميتُها جرحها؟

خافَ الرجل فركضَ إلى البـاب ونجا بنفسـه، أما جوليان فقـد أخذ يبكي مُردداً: «لم تمتْ وستعيش! ستعيشُ لتغفرَ لي وتحبّني. .».



جوليان ليس لوحده

في اليومِ الثاني، أُوقظَ في ساعةٍ متأخرة وقال له حارسُهُ:

ـ إليك يا سيد جوليان هاتين الزجاجتين من الخمرِ الجيد وقد أرسلتا لك.

ـ كيف؟

ـ اجل يا سيدي، لكن لا ترفعْ صوتَكَ وإلا سمعوك.

أجاب جوليان ضاحكاً:

ـ سُيجزل لك العطاء.

عندئذٍ خطرتْ له هذه الفكرة: «إن هذا الرجل لا يكسبُ هنا سوى ثلاثة مئة أو أربع مئة فرنك، فبوسعي أن أعطيه عشرة آلاف إذا قبل بالهرب معي إلى سويسرا..» لكن فكرته أتت بعد فوات الأوان إذ في

مُنتصف الليل أتتْ عربةٌ نقلته إلى بيزانسون الذي وصله في الصباح، هناك طرحَ عليه قاضٍ بعضَ الأسئلة، مرتْ بعدها بضعة أيام دون أن يُسألَ شيئًا فاطمأن، وكان يكرر: «كلّ شيءٍ بسيط في قضيتي لقد أردتُ أن أقتل، لذا يجب أن أُقتل».

لم تكنْ حياتُه حزينةً لأنه كان يرى الأمورَ كلّها بطريقةٍ أخرى، فلم يعدْ يطمحُ بشيءٍ وقلّ تفكيره بالآنسة دي لامول، إذ كان تفكيره محصوراً بالسيدة دي رنيال وخصوصاً في هدوء الليل، حيثُ كان يشكُر الله لأنه لم يُصبها بجرحٍ مميت ويقول: «إنه حقاً لأمرٌ مسلٍّ، فلقد كنتُ أعتقدُ أنها برسالتها الموجهة إلى السيد دي لامول قضتْ وإلى الأبد على سعادتي، وبعد أقل من خمسة عشر يوماً لم أعدْ افكّرُ بكل ما كان يُشغلني حينئذ».

وفي لحظاتٍ أخرى، كان يُسارع بالنهوض على كرسيّه قائلاً: «لو جرحتُ السيدة دي رنيال جرحاً قاتلاً لانتحرت.. إنني بحاجةٍ للتأكد من ذلك كيْ لا أخجل من نفسي. إنّ المسألةَ الكبرى هي في قتل نفسي».

بعد بضعةِ أيام قال مُحدثاً نفسه: «الانتحار كلا!

فبإمكاني أن أعيش أيضاً خمسة أو ستة أسابيع تقل أو تكثر.. إن الحياة حلوة والمكان هادىء إذ لا أحد يزعجني».

سمعَ ضجةً قويةً، ففُتح البابُ وارتمى الكاهن شيلان مُرتجفاً بين ذراعيْه متمتماً: «إلهي، أهذا ممكنٌ يا ولدي؟»

لم يستطع العجوزُ الطيبُ أن يضيفَ كلمةً واحدةً فخشي عليه جوليان من السقوط واضطُر لاقتياده إلى أحد الكراسي. لقد تغير الكاهنُ المسكين الذي كان قوياً خلال بضعة شهور فلم يبقَ منه سوى ظلّه. قال له جوليان: «أنا بحاجةٍ لرؤيتك» لكنه لم يتلقَّ أيَّ جوابٍ مفهوم، فكانتْ هذه اللحظة هي الأشدُ إيلاماً له بعد طلقات الغدارة إذ رأى الموتَ في أبشع صوره.

قرّرَ أن يكتب إلى مدير السجن كيْ يطلبَ ألا يُقابله أحدُ بعد الآن لكنه تساءل: «وفوكيه؟».

مرَّ شهران كفَّ فيهما عن التفكير بفوكيه عندما وصل هذا الأخيرُ، كان هذا الرجل البسيط الطيب في غايةِ التعاسة. ينحصر تفكيرُهُ في بيعِ كل ما يملكُ لإخراج صديقه من السجن وصارحه بذلك فأجابه جوليان: «إنك

تُحزنني فعليَّ أن أدفعَ ثمنَ غلطتي. لكنْ صحيحٌ أنك على استعدادٍ لبيع كل ما تملكه؟» قال ذلك وارتمى بين ذراعيْ فوكيه الذي فكّر حينئذٍ «آه! إنه موافقٌ على الهرب!».



حكم الأعدام

في اليومِ التالي، فُتح الباب فأيقظَ جوليان وارتمتْ سيدةٌ ترتدي زيَّ فلاحة بين ذراعيْه فوجدَ بعضَ الصعوبة في التعرف عليها. إنها الآنسة دي لامول التي قالتْ له: «أيها الشقي! لقد عرفتُ مكانك من رسالتك. ولم أعرف إلا في فاريار كم هو كبيرٌ ونبيلٌ ذلك القلب الذي يخفقُ في هذا الصدر..».

ـ إذا علم السيد دي لامول بحضورك إلى بيزانسون يا عزيزتي ماتيلد، فإنه سيموتُ وهذا ما لن أغفره أبداً لنفسي، فلقد سببتُ له حتى الآن الكثير من الآلام.

ـ لقد سافرتُ باسم السيدة ميشيليه.

ـ وكيف تمكنتِ السيدة ميشيليه من الوصول إليَّ بهذه السهولة؟

ـ آه إنك دائماً كما أعهدُك أعظمُ من الآخرين، لقد أعطيتُ مئة فرنك إلى سكرتير القاضي..

ـ ثم ماذا؟

أجابتْهُ مُعانقة:

ـ لا تغضب يا عزيزي جوليان فلقدِ اضطررتُ للبوح باسمي إلى ذلك السكرتير الذي كان يعتقدُ أنني إحدى عاملات باريس وقد وقعتُ في غرام جوليان الجميل.. لقد أخبرتُهُ أنني زوجتك وهكذا سيكون بوسعي أن أراك كل يوم.

فكر جوليان أنها مجنونة وأنه لم يستطع منع ذلك لكن موته القريب سيُسوي كلَّ شيء، إذ سيُحكم عليه قريباً.

بعد بضعةِ أيام أراد فوكيه وماتيلد أن يُعلماه ببعض الأنباء العامة التي تحمل بعض الأمل لكنه أوقفهما قائلاً:

«دعاني فالمرءُ يموتُ كما يرغب، وأنا لا أريدُ التفكير بالموت إلا على طريقتي الخاصّة، دون أن أهتمّ بالغير، فكل ما يربطني بهم سينتهي عما قريب. لا تحدثاني بعد الآن عنهم، إذ تكفيني رؤيةُ القضاة».

كان عقلُه في فارجي، ورغم أنه لم يأت أبداً على ذكر السيدة دي رنيال أمام فوكيه، فإن صديقه أخبره مرتين أو ثلاثاً بأن صحتها في تحسن ووجدت كلماتُه صدىً في قلبه..

أخيراً، حل اليوم الذي كان يُخيف ويؤلم السيدة رنيال وماتيلد فتقاطرتِ المنطقةُ بأسرها إلى بيزانسون لتحضر محاكمة جوليان الجميل.

في الساعةِ التاسعة نزلَ من سجنه للذهاب إلى القاعة الكبرى في قصر العدل، فوجد رجالُ الدرك عناءً كبيراً بالمرور لازدحام ساحةِ المدخل بالناس. أشفقَ جوليان على كل أولئك الناس الذين سيسعدهم الحكم عليه بعد قليل، لكنه دهشَ لبقائِهِ أكثر من ربع ساعة بينهم دون أن يسمعَ سوى كلمات حزينة في صالحه، فقال في نفسه: إنهم أقلُّ خبثاً مما كنتُ أظن.

كان جوليان قد نام جيداً، فبدا هادئاً وكأنه لم يتجاوز العشرين، بسيطَ الملبس، أنيقاً، جميل الشعر والجبهة اذ اعتنتْ ماتيلد نفسها بمظهره.

جلسَ فسمع أصواتاً تردد في كل جوانب القاعة: «يا

إلهي! كم هو شاب.. إنه يكاد يكونُ طفلاً!»

دقتِ الساعة الواحدة صباحاً فغادر القضاةُ القاعة للمناقشةِ في أحد المكاتب. لم تُغادر امرأةٌ واحدة مكانَها وكان كثيرٌ من الرجال على وشك البكاء.

كان جوليان تعباً سمعَ حوله تساؤلاتٍ عن سبب عدم عودة القضاة ورأى بسرورٍ أن الجميع يتمنون أن يكون هذا التأخر في صالحه، دقت الساعة الثانية ففُتح بابُ مكتب القضاة الصغير وساد القاعةَ صمتٌ عميق ثم سُمع صوت يقول: «حُكم على جوليان سوريل بالموت».

نظرَ جوليان سوريل إلى ساعته فرآها تُشيرُ إلى الثانية والربع.



نهايةٌ عظيمة

اقتيد جوليان إلى غرفةٍ مظلمة مُخصصة للمحكومين بالإعدام. وهناك سرّه الاجتماع بالسيدة دي رنيال التي استطاعت الهربَ من فاريار فأظهرت له طيبةً جعلته يستعيدُ الفرحَ والحبَّ ويرددُها لها: «إعلمي أنني قد أحببتُك دائماً ولم أُحبَّ غيرك».

سألتهُ السيدة رنيال وهي في غاية السعادة: «هلْ هذا ممكن؟» ثم استندتْ إليه وهو راكعٌ عند ركبتيْها فبكيا طويلاً وبصمت.

لم يعرف جوليان في حياته كلها لحظةً مماثلة.

ويومَ أن قيل له إن عليه أن يموت، كانت الشمسُ ساطعةً فشعر الفتى بالشجاعةِ تملأُ قلبَهُ، وكان السيرُ في الهواء الطلق بالنسبةِ له لذةً ممتعةً تُعادلُ السير على

اليابسة لمن أمضى وقتاً طويلاً في البحر. قال لنفسه: «كل شيءٍ على ما يرام فلم تَخُنِّي قواي». ثم فكر باللحظات الحلوة التي عاشها في غابات فارجي فشعَر بنفسه حراً وبقي بسيطاً وطبيعياً.

قبل يومين من النهاية قال لفوكيه: «لقد أتتْ ماتيلد والسيدة دي رنيال لرؤيتي ولم تغادرا بيزانسون، فخذهما في آخر يومٍ في نفس العربة وتدبر أمرك كيْ تسرعَ الجياد. وهكذا سوف ترتميان في ذراع بعضهما أو تُصبحان عدوتيْن لدودتيْن. وعلى كل حال سيخف تفكيُرهما بألمهما المخيف. أعتقد أن ماتيلد سوف تشفى بسهولة من هذا الحب الجنوني وأن السيدة دي رنيال سوف تعيش لِتُعنى بابن ماتيلد كما وعدتني».

أما الآن فإن جوليان يفكّرُ بالموت. قال ذات مرة لفوكيه:

«مَنْ يدري؟ فربما شعرنا بشيء ما بعد موتنا، إنني أرغبُ في أن أدفن في تلك المغارة الصغيرة، في الجبل المطل على فاريار، لقد حدثتك بذلك مراراً. فعندما كنتُ وحدي في تلك المغارة التي أستطيع أن أرى منها

أغنى مناطق فرنسا، شعرتُ بتأثرٍ عميق. . إن تلك المغارة عزيزةٌ علي. . إن كل شيء هنا يُمكنُ أن يُباع ،إذا أحسنتَ التصرف فسيبعونك جثتي».

نجح فوكيه في إتمام هذه الصفقة المحزنة، فقضى الليل لوحده في غرفته قرب جثمان صديقه ودهش لدخول ماتيلد عليه اذ كان قد تركها قبل ساعات على بعد أربعين كيلو متراً من بيزانسون. كانتْ زائغةَ النظرات فقالت له: أُريدُ أن أراه».

لم يجد فوكيه شجاعةً كافية للكلام أو للنهوض فدلها باصبعه على معطفٍ كبير أزرق لفَّ فيه ما بقي من جوليان. جثَتْ على ركبتيْها وأزاحتِ المعطف بيديْها المرتجفتيْن فأشاح فوكيه بوجهه. .

وفي الليلة التالية وأمام المغارة الصغيرة التي اختارها جوليان والتي أُنيرت بالف ضوء، رتّلَ عشرون كاهناً ترنيمةَ الوداع الأخيرة.

تقاطر فلاحو القرى الصغيرة والجبل تتوسطهم ماتيلد بثيابٍ سوداء طويلة، وعندما انتهى كلُّ شيء ألقت لهم الآفاً من قطع الخمسةِ فرنكات وقررتِ الاهتمام بالمغارةِ

الصغيرة وتزيينها بأجمل الحجارة المنحوتة.

أما السيدة دي رنيال فقد حافظتْ على وعدها فلم تُحاول الانتحار. . لكنها بعد ثلاثة أيام من موت جوليان غادرتْ هذا العالم وهي تعانق أولادها.



أسئلة

١ - ما هو أصدق وصف للسيد دي رنيال؟
٢ - لمَ كلّفت حدائق العمدة غالياً؟
٣ - ما هي الأسباب التي دفعت السيد رنيال لاتخاذ مربٍ واختيار جوليان سوريل؟
٤ - لمَ لمْ يُبادر الأب سوريل لإعطاء جواب للسيد دي رنيال؟
٥ - هل كان الأب سوريل يحب ابنه؟ لماذا؟
٦ - ما الفكرة التي يمكن أن يكنّها القارىء عن جوليان؟
٧ - ما هي مشاعر السيدة دي رنيال؟ وما هي مشاعر جوليان؟
٨ - لمَ طلبَ جوليان إلى الأولاد أن يُسمِّعوا له درساً؟
٩ - لمَ حاول جوليان أن يدهش الخدم؟
١٠ - ما رأيك بالنصائح التي أعطاها الكاهن شيلان؟
١١ - كيف عرفتِ السيدة دي رنيال حياةً جديدة؟
١٢ - لمَ فكر جوليان بأن عليه واجباً ينبغي أن يقوم به؟
١٣ - هل كانت الأمسية هامة لجوليان وللسيدة رنيال؟
١٤ - لمَ لم تؤثر كلمات السيد دي رنيال الجارحة بجوليان؟
١٥ - لمَ عرض فوكيه على صديقه أن يعمل معه؟ وما هي الأسباب التي دفعت جوليان للرفض؟

١٦ ـ لِمَ طلبت السيدة دي رنيال إلى جوليان أن يسرد رحلته؟
١٧ ـ كيف بدا التغير على جوليان بعد مقابلة صديقه؟
١٨ ـ لِمَ عين جوليان في عداد حرس الشرف؟
١٩ ـ لِمَ أجبر الكاهن شيلان على مغادرة فاريار؟ وما هي الأسباب التي دفعت هذا الأخير لاختيار الدير؟
٢١ ـ ما الذي يُظهر أن جوليان قد دخل عالماً جديداً بالنسبة له؟
٢٢ ـ كيف استقبل السيد بيرار جوليان؟
٢٣ ـ لِمَ فكر جوليان بأن عليه أن يكون «الأفضل»؟
٢٤ ـ لِمَ أحبَّ السيد بيرار جوليان؟
٢٥ ـ كيف ابتسم الحظ للفتى؟
٢٦ ـ لِمَ فضل جوليان أن يجرب حظه على أن يعيش بهدوء مع فوكيه؟
٢٧ ـ ما هي الأسباب الحقيقية التي دفعت جوليان إلى التوقف في فاريار؟
٢٨ ـ لِمَ كان على جوليان أن ينتظر يومين قبل الاستقرار عند السيد دي لامول؟
٢٩ ـ هل هناك وجهُ شبه بين السيد دي لامول والسيد دي رنيال؟
٣٠ ـ ما الذي يُظهر أن جوليان لم يعتد العيش في أسرة نبيلة؟
٣١ ـ لِمَ أراد جوليان أن يركب الحصان في اليوم التالي؟
٣٢ ـ لِمَ تغيرت نظرة الآنسة دي لامول إلى جوليان؟
٣٣ ـ ما رأيك بإهداء السيد دي لامول ثوباً ازرق لجوليان؟
٣٤ ـ لِمَ أرادت الآنسة دي لامول أن يأتي جوليان إلى دار السيد دي ريتز؟
٣٥ ـ ما الذي يُظهر أن الآنسة دي لامول لا تحب الشبان الذين يتسابقون لخطب ودها؟
٣٦ ـ ما رأي جوليان بالآنسة دي لامول؟
٣٧ ـ لِمَ أراد الفتى أن يغادر باريس؟

٣٨ ـ لِمَ لم تحاول الآنسة دي لامول أن تتحدث إلى جوليان؟
٣٩ ـ ما هي الأسباب التي برر بها جوليان رفضه ثم إذعانه لماتيلد؟
٤٠ ـ ما هي التدابير التي اتخذها جوليان لمواجهة الأخطار المحتملة؟
٤١ ـ بَيِّنْ أن الآنسة دي لامول قد فكرت في كل شيء.
٤٢ ـ اشرح كيف أن السيد دي لامول يفكر بنفسه وبشرف أسرته أكثر من تفكيره بابنته.
٤٣ ـ لِمَ أخبر جوليان السيد دي لامول بمكان نزهته.؟
٤٤ ـ هل ماتيلد محقة بطلبها إلى جوليان أن يغادر باريس؟
٤٥ ـ كيف حاولت الفتاة أن تحمل أباها على السماح لها بالزواج من جوليان؟
٤٦ ـ لِمَ طلبَ جوليان إلى السيد لامول أن يكتب إلى السيدة دي رنيال وما الذي كان يأمله من ذلك؟
٤٧ ـ أظهر تخبط جوليان بعد قراءته لرسالة السيدة دي رنيال.
٤٨ ـ الا يزال جوليان يحب هذه السيدة؟
٤٩ ـ ما هي مشاعر وأفكار السيدة دي رنيال منذ رحيل جوليان؟
٥٠ ـ بيِّنْ أن جوليان قد احتفظ بكبريائه رغم فقدان طموحه.
٥٢ ـ ما الذي حمله الكاهن شيلان وفوكيه إلى الفتى؟
٥٣ ـ بَيِّنْ أن جوليان مصمم حقاً على الموت.
٥٤ ـ هل اهتم الناس بالفتى؟ هل تعتقد أنهم كانوا يؤيدون حُكم المحكمة؟
٥٥ ـ كيف أعدَّ جوليان لموته؟
٥٦ ـ هل ترى أن الآنسة دي لامول كانت تحب جوليان بنفس الطريقة التي أحبته بها السيدة دي رنيال؟
٥٧ ـ ما هو الدرس الذي تستخلصه من هذه القصة؟

قصص
عالمية

الأحمر والأسود

